

محمد الجوادي

الأزهر الشريف

والإصلاح الاجتماعي والمجتمعي

الشيخ محمد متولي الشعراوي - الشيخ محمود شلتوت

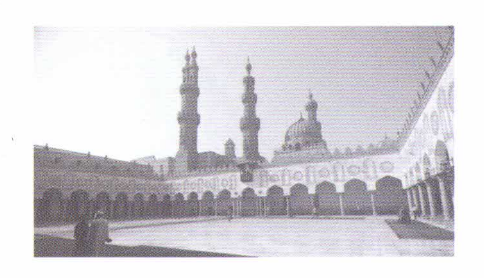
الشيخ محمود خطاب السبكي - الشيخ محمود أبو العيون

الشيخ إبراهيم الجبالي - الشيخ حسن الطويل

الشيخ محمد الصادق عرجون - الشيخ عبد المتعال الصعيدي



دار الكلمة للنشر والتوزيع



نستعرض في هذا الكتاب بعض ملامح دور الأزهر الشريف في الإصلاح الاجتماعي والمجتمعي بمعناهما الواسع من خلال قراءة جهود ثمانية من رموز علمائه الأعلام ، وسير حياتهم مع العلم والعمل والدنيا الواسعة من حولهم ، وقد هداني الله إلى أن أدرك حقيقة الفكرة الغالبة على توجهات كل منهم في سبيل تحقيق الإصلاح المجتمعي والاجتماعي والجماعي في المجتمع الإسلامي المعاصر ، فوجدت الشيخ الشعراوي نموذجا لفكرة الهداية ، و رأيتَ الشيخ شلتوتًا نموذجا لفكرة التقريب، و رأيت الشيخ محمود خطاب السبكي نموذجا لفكرة التعاون، و رأيت الشيخ أبا العيون نموذجا لفكرة تغيير المنكر ، ورأيت الشيخ الجبالي نموذجا لفكرة الاستيعاب ، ورأيت الشيخ عبد المتعال الصعيدي نموذجا لفكرة التجديد، ورأيت الشيخ محمد الصادق عرجون نموذجا لفكرة السماحة على حين رأيت الشيخ حسن الطويل وهو سابق في الزمن على هؤلاء السبعة نموذجا لفكرة القدوة ، وقد كان قدوة بالفعل .





الأزهر الشريف

والإصلاح الاجتماعي والمجتمعي

الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م

بطاقة الفهرسة

الجوادي ، محمد

الأزهر الشريف ، د/ محمد الجوادي. ط١ . المنصورة : دار الكلمة للنشر والتوزيع ، ٢٠١٥م

١٩٢ ص ، ٢٤ سم

رقم الإيداع :٢٢٠٨١/ ٢٠١٤م

تدمك :٣ - ٤٩٢ - ٣١١ -٩٧٧-٩٧٨

دار الكلمة للنشر والتوزيع مصر ـ القاهرة
القاهرة . محمول : ٠١٠٩٧٠٧٤٩٥

E-mail:mmaggour@hotmail.com
E-mail:daralkalema_pdp@hotmail.com
www.facebook.com/DarAlkalema

د. محمد الجوادي

الأزهر الشريف

والإصلاح الاجتماعي والمجتمعي

دار الكلمة
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم



إهداء

إلى العالم الجليل

الدكتور / فتحي عبد الرازق

هذا الكتاب

نستعرض في هذا الكتاب بعض ملامح دور الأزهر الشريف في الإصلاح الاجتماعي والمجتمعي بمعناهما الواسع من خلال قراءة جهود ثمانية من رموز علمائه الأعلام، وسير حياتهم مع العلم والعمل والدنيا الواسعة من حولهم، وقد هداني الله إلى أن أدرك حقيقة الفكرة الغالبة على توجهات كل منهم في سبيل تحقيق الإصلاح المجتمعي والاجتماعي والجماعي في المجتمع الإسلامي المعاصر، فوجدت الشيخ الشعراوي نموذجا لفكرة الهداية، و رأيت الشيخ شلتوتًا نموذجا لفكرة التقريب، و رأيت الشيخ محمود خطاب السبكي نموذجا لفكرة التعاون، و رأيت الشيخ أبا العيون نموذجا لفكرة تغيير المنكر، ورأيت الشيخ الجبالي نموذجا لفكرة الاستيعاب، ورأيت الشيخ عبد المتعال الصعيدي نموذجا لفكرة التجديد، ورأيت الشيخ محمد الصادق عرجون نموذجا لفكرة السماحة على حين رأيت الشيخ حسن الطويل وهو سابق في الزمن على هؤلاء السبعة نموذجا لفكرة القدوة، وقد كان قدوة بالفعل.

وليس معنى هذا أن إنجاز كل من هؤلاء قد انحصر في الفكرة التي اتخذت شخصيته عنوانا عليها فهذا مما لا أظنه يخطر ببال، ولا يستقيم معه مقال وإنما هو أسلوب علمي وصفي نلجأ إليه لنبين الفروق الدقيقة بين الشخصيات الكبيرة من ناحية، و لنكشف عن السبل المتعددة للإصلاح ومناهجه من جهة أخرى.

وبالإضافة إلى هذين الهدفين النبيلين فقد حرصت على أن تكون الدراسات التي يتضمنها هذا الكتاب بمثابة موادّ موسوعية دقيقة ومطولة وكاشفة ومحيطة وملمّة بالشخصية المتناولة وإنتاجها وإسهاماتها وتاريخها وأثرها في محيطها على النحو الذي تقدمه الموسوعات العالمية الرائدة.

وقد اختصرت كثيرا مما كنت كتبته في هذا الموضوع بما في ذلك استهلال فكري وفلسفي وتعريفي بمعاني الإصلاح الاجتماعي والمجتمعي والجماعي وعلاقتها بدراسة

الإسلام والدعوة له ، فقد وجدت الأمثال المتجسدة أعظم بكثير من الأفكار المتنظرة والمنظرة فلم أشأ أن تكون المقدمات أضعف من الجوهريات المستغنية بنفسها عن كل تقديم .

وقد آثرت في ترتيب أبواب الكتاب الثمانية في المتن أن يخالف ترتيب الغلاف بأن يكون الترتيب تعاقبيا حسب مولد هؤلاء العلماء الأعلام كأنما نرى تطور الزمن ، ولهذا يرى القارئ عناوين الأبواب مكتفية بذكر تاريخ المولد بالتاريخ الميلادي وذلك من قبيل التركيز على التعاقب .

ولا يفوتني في هذه المقدمة أن أشيد بجهد أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومي (عليه رحمة الله) فيما قدمه من جهد رائد في التأريخ الفائق لكثير مما اعتمدنا عليه و يسر أمامنا الطريق في كثير من الوقائع وتاريخها وتوثيقها، ولأحمد تيمور باشا فضل سابق في ترجمته للشيخ حسن الطويل ، وللدكتور محمود الطيب فضل لاحق في ترجمته للشيخ محمود خطاب السبكي. وللدكتور أيمن تمراز فضل في نشر تاريخ الأستاذ الجبالي مع الوظائف. ولكثيرين غيرهم أفضال أصحاب الحقوق علينا فلولاهم جميعا ما أنجزنا ولا أوجزنا ولولاهم ما حققنا ولا حررنا .

وكلي أمل أيضا أن يسهم هذا الكتاب في تنمية وعينا بديننا ووطننا وأزهرنا ومجتمعنا وعيوبنا و أخطائنا وآمالنا وأحلامنا وتطلعاتنا.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل عملي هذا خالصا لوجهه، وإن كنت أعلم عن نفسي أنى لا أخلو من الرياء في كل ما أفعل. والله سبحانه وتعالى أسأل أن يهديني سواء السبيل، وأن يرزقني العفاف والغنى، والبر والتقى، والفضل والهدى، والسعد والرضا، وأن ينعم عليّ بروح طالب العلم، وقلب الطفل الكبير، وإيمان العجائز، ويقين الموحدين، وشك الأطباء، وتساؤلات الباحثين .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمتعني بسمعي وبصري وقوتي ما حييت، وأن يحفظ عليّ عقلي وذاكرتي، وأن يجعل كل ذلك الوارث منى .والله سبحانه وتعالى أسأل أن يذهب

عنى ما أشكو من ألم وتعب وصب وقلق، وأن يهبني الشفاء والصحة والعافية، وأن يقيلني من مرضي، وأن يعفو عني، وأن يغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر. وأن يحسن ختامي ، وأن يجعل خير عمري آخره ، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاه.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعينني على نفسي وأن يكفيني شرها، وشر الناس، وأن يوفقني لأن أتم ما بدأت، وأن ينفعني بما علمني، وأن يعلمني ما ينفعني ، وأن يمكنني من القيام بحق شكره وحمده وعبادته فهو وحده الذي منحنى العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة، والوقت، والقدرة، والجهد، والمال، والقبول وهو جلّ جلاله الذي هداني، ووفقني، وأكرمني، ونعمني، وحبب فيَّ خلقَه، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتي وهي - بالطبع وبالتأكيد - كثيرة ومتواترة ومتنامية فله سبحانه وتعالى - وحده - الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل .

د محمد الجوادي

الباب الأول

فكرة القدوة
الشيخ حسن الطويل
١٨٣٤م

ـ ١ ـ

هو من أعلام القرن التاسع عشر ولهذا نكتب اسمه على نحو ما كانوا يكتبونه : حسن بن أحمد علي الطويل، وكان يكني بأبي محمد.

هو واحد من كبار علماء المالكية ، كان يحظى باحترام كبير في أوساط المثقفين والعامة على حد سواء ، وكان صاحب تأثير علمي ضخم بل جبار على عدد كبير من العلماء الذين كانوا تلاميذ له في الأزهر ودار العلوم.

كان الشيخ حسن الطويل عالمًا وأستاذًا موهوبا، وكان حجة في كثير من الفنون، وبخاصة العلوم الرياضية التي لم يكن الجمع بينها وبين علوم الدين شائعاً، وكان يعرف أيضا بعض اللغات الأجنبية، وكان تكوينه العلمى على هذا النحو نادرا بين أقرانه من أساتذة جيله.

جمع الشيخ حسن الطويل بين العلم بالفقه والعلم الموسوعي وممارسة الصوفية، كما مارس السياسة في مصر وخارجها على نحو قوي وشجاع .

وهكذا اجتمع له ما ندر اجتماعه فكأن قدوة ونبراسا ورمزا من رموز إصلاح المجتمع بالدين والتربية.

عرف للشيخ حسن الطويل موقف سياسي بارز حينما أعلن عن تأييده للسيد المهدي في السودان بعد ما أعلن المهدي عداوته للإنجليز وحقق انتصارات متوالية، وقد أغضب هذا الموقف سلطات الاحتلال الإنجليزي، وجعلها تضعه تحت مراقبة شديدة.

ـ ٢ ـ

ولد الشيخ حسن الطويل في منية شهالة محافظة المنوفية على الأشهر عام

١٨٣٤م، بينما يذكر الشيخ بشير الظافر في كتابه «اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة» أنه ولد سنة ١٢٥٦هـ (= ١٨٤٠م)، وتذكر مصادر أخرى تواريخ متعددة بين هذين التاريخين.

تلقى الشيخ حسن الطويل تعليما دينيا تقليديا بدأه بالكتاب حيث قرأ القرآن الكريم وحفظه، ثم انتقل إلى طنطا وهو صغير، وقضى في الدراسة بالمسجد الأحمدي نحو سنتين أو ثلاث سنوات ، وشارك في الحلقات التي كانت تعلم تجويد القرآن، كما حفظ عددا من المتون الأزهرية، وذلك على عادة نظام التعليم الأزهري في ذلك الوقت.

ثم انتقل إلى القاهرة وانتظم في طلب العلم بالجامع الأزهر، وفيه درس على مجموعة من المشايخ الكبار كان منهم المشايخ: محمد عليش المالكي، وحسن العدوي الحمزاوي، وإبراهيم السقا، ومحمد الأشموني، ومحمد الإنبابي، وأحمد شرف الدين المرصفي، وقد ظهرت عليه النجابة، وكان يتمتع بحيوية فكرية وعلمية دفعته إلى مناقشة الشيوخ في الدروس.

ـ ٣ ـ

ثم كان من حظ الشيخ حسن الطويل الحرج أن صادفه قانون من القوانين الهوائية الطارئة فقضى عليه هذا القانون بالانقطاع عن الدراسة في الأزهر، وهو القانون الذي وضع في عهد الوالي محمد سعيد باشا ، وكان يقضي بتجنيد أبناء العمد وأقاربهم، وهكذا طلب حسن الطويل للخدمة العسكرية وجند لأنه كان من أسرة ذات شأن في قريته، لكنه في أثناء وجوده بين الجند ظل حريصًا على المواظبة على الصلوات والأوراد، وكان الوالي يكره من الجند مَنْ يصلي، وحدث أن أرسل إليه شيخه الشيخ أحمد شرف الدين المرصفي رسالة ضمنها استغاثة يشير عليه بتلاوتها عقب كل صلاة، رجاء أن تفرّج كربه وتخلصه من الجندية، فوقعت الرسالة في أيدي

قادته، وقرؤوها، وعدوه بسبب ذلك مذنبا، وكان عقاب المذنبين إهمال تعليمهم الفنون العسكرية وتشغيلهم في الأعمال الشاقة كإنشاء السكك الحديدية.

وقد ظل حسن الطويل يشتغل في هذه الأعمال بهمة زائدة تأديبا لنفسه، لأنه اعتقد أن ما وقع عليه من ظلم كان عقابا على جراءته على مشايخه فيما مضى.

ـ ٤ ـ

ويروى أن الوالي محمد سعيد باشا كان يلقب المطيعين من الجند بالفراعنة، والعامين المذنبين بالنهاردة، وحدث أنه غضب ذات مرة على النهاردة وأمر بطردهم نهائيًا من الجيش، فخرجوا منه، إلا أنهم بقوا تابعين على ذمة الجيش فيما يشبه الاحتياط، وكانوا يسمون في ذلك الحين «بالعساكر الإمدادية».

وهكذا خرج حسن الطويل مع هؤلاء النهاردة ليكون من الإمدادية، فأقام بقريته مدة، وحنّ، بعد فترة، إلي أن يجتمع مع الشيخ خالد أحد مشايخ الطرق، فرأي أن يسافر إليه، فسافر إلى بلدته المسماة بالسريرية التابعة لمدينة المنيا الحالية (وكانت في ذلك الحين تسمى منية ابن الخصيب) ولزمه بضعة أشهر عكف فيها على الاشتغال بالعلم والطرق الصوفية.

ـ ٥ ـ

ثم حدث أن طُلب حسن الطويل إلى الجندية مرة ثانية وذهب إليه أبوه ليحضره من المنيا حيث كان يقيم عند الشيخ خالد، وحاول الشيخ خالد منعه لكنه عاد مع أبيه إلى قريته، وهناك تبين له أنهم أهملوا طلبه، وأمره والده بالبقاء معه في القرية وحظر عليه أن يعود إلى الصعيد، لكنه خرج من القرية بغير علم أبيه وهو لا يملك شيئا، وقصد القاهرة سائرا على قدميه، يبيت في أي بلدة تصادفه حتى وصل إلى القاهرة.

وذهب إلى الأزهر فصادف الشيخ محمد السقاري في طريقه، فلما رآه الشيخ أسرع إليه وأخبره أنه يبحث عنه من مدة، وأنزله بداره وأقسم عليه أن يستضيفه

شهرا لا يتكلف شيئا من عنده، وكان يريد منه أن ينظم قصيدة يمدح بها أحد الأمراء فنظمها له، على حين نال الشيخ السقاري عنها أربعين دينارا جائزة.

-٦-

وبعد هذا عينه الشيخ حسن العدوي لمساعدته في تصحيح البخاري، وكان قد شرع في طبعه، فانتفع بمكافأة التصحيح.

ثم طلبه ديوان الجهادية لتصحيح ما يطبع به من المطبوعات الأميرية وتصادف أن أحمد عبيد بك رئيس قسم الترجمة هو الذي امتحنه فأعجب به وقال عنه: «هذا جوهرة خفيت علينا»، وعينه ليتولى وظيفة التصحيح في ديوان الجهادية، وسعى له حتى محوا اسمه من قوائم الجيش حتى لا يعاد طلبه.

وفي هذه المدة عاد الشيخ حسن الطويل لطلب العلم والاشتغال به، مع القيام بأعباء وظيفته، وظل طالبًا للعلم في الأزهر حتى أجازه شيوخه، وكانت الإجازة تعني السماح له بالقيام بالتدريس فدّرس بالأزهر، وكان أول درس قرأه في شوال ١٢٨٣ هـ (حوالي ١٨٦٥ ميلادية)، وابتدأ فيه بالقراءة في متن الأزهرية، لكنه سرعان ما فرض شخصيته وأسلوبه في التدريس، ولم يقتصر على العلوم المتداولة بالأزهر.

-٧-

وكان الشيخ حسن الطويل قد أهّل نفسه وأهلته حياته الصعبة بقدر كبير من المعارف العلمية والعامة، وكان قد تلقى على الشيخ محمد أكرم الأفغاني ما كان يسمى: العلوم الحكمية، كما تلقي خلاصة الحساب لبهاء الدين العاملي، وكان ملما أيضا بعلوم الهندسة والجبر وسائر العلوم الرياضية.

و كان الشيخ الطويل قد قرأ التاريخ قراءة إمعان وتدبر، وطالع كتب اللغة والأدب، وكان لا يسمع عن أحد يعرف علما إلا سعى إليه ليتلقاه عنه كائنا مَنْ كان.

وكان له بالإضافة إلى علمه هذا ثقافة عامة هيأت له بُعد نظر في أمور السياسة، كما كان معروفا بسجايا حميدة تشهد له بأنه عالم ناضج يتميز بسعة العقل، وسلامة العقيدة، وشدة الإنكار على البدع المستحدثات في الدين، كما كان موهوبا : خطيبًا وكاتبًا و شاعراً، وقد عرف عنه أنه نظم الشعر السهل، وكتب الترسل البديع، وكان أيضًا أستاذا مبدعا مجيدًا للمحاضرة.

وقد درس عليه في الأزهر كثيرون من علمائه المشهورين، فكان منهم المشايخ: أحمد أبو خطوة (وهو أخص تلاميذه)، ومحمد عبده (وهو أشهر تلاميذه)، وأحمد الشريف، وإبراهيم اللقاني، ومحمد راضي البوليني وهؤلاء هم الطبقة الأولى من تلاميذه وهم قريبون منه في السن .

ثم قرأت عليه طبقة ثانية منها الشيوخ: عبد الرحمن فودة، ومحمد الغريني، وعبد الرحمن قراعة، ومحمد بخيت، وداغر، ومحمد المغربي، وأحمد الزرقاني.

ـ ٨ ـ

كان الشيخ حسن الطويل صاحب طريقة متميزة في الأستاذية، وكان لهذا حريصا على اصطفاء بعض التلاميذ النجباء والتدريس لهم في داره وتربيتهم على مبادئه وسلوكياته، وكان على رأس هؤلاء المقربين : أحمد أبو خطوة، وراضي البوليني، وعبد الرحمن فودة، وعبد الرحمن قراعة فكانوا يقرؤون عليه في داره دروسا غير الدروس الأزهرية.

وقد تمتع الشيخ حسن الطويل بسمعة عالية في الأستاذية والعلم، فتهيأ له بفضل السمعة العالية أن ينقل للعمل في نظارة المعارف، وعين للتفتيش فيها، ولما توفي الشيخ زين المرصفي مفتشها الأول (١٣٠٠ هـ)، وخلفه الشيخ حمزة فتح الله المفتش الثاني عين الشيخ حسن الطويل مفتشا ثانيا.

ـ ٩ ـ

وعندما قرر وزير المعارف علي مبارك باشا (١٨٨٨) تعديل مناهج الدراسة بدار العلوم بحيث تتيح لطلابها التأهل لوظائف القضاء والإفتاء بالإضافة إلى وظائف التدريس التي كانت ميدان عملهم، وقع الاختيار على الشيخ حسن الطويل ليكون مدرسا بمدرسة دار العلوم حيث كلف بتدريس الحديث والفقه.

وسرعان ما أصبح من رموز مدرسة دار العلوم في ذلك العهد، بل كان في رأى البعض أبرز رموز عهدها الذهبي.

وفي تلك المدرسة تخرج على يديه كثير من مشاهير الخريجين الدراعمة كان منهم: حسن منصور، ومحمد المهدي، و المؤرخان محمد الخضري، وعبد الوهاب النجار.

ـ ١٠ ـ

كان الشيخ حسن الطويل سني العقيدة، مالكي المذهب كما ذكرنا، لكنه كان أيضا صوفي المشرب، وقد أتقن تدريس العلوم العديدة التي تولى تدريسها، وكان مع هذه المكانة المرموقة يتمتع بالزهد، والورع، وعلو النفس، والتأدب بآداب الشرع، والتمسك بالكمالات.

وقد ظل الشيخ حسن الطويل طيلة حياته زاهدا متصفا بعلو النفس عن الدنايا، والبعد عن الرياء، والتواضع مع كل إنسان، والبساطة في المطعم والملبس والمسكن، وكان لا ينفق على نفسه من مرتبه إلا القليل، ويتصدق بالباقي في الخفاء، وكان لا يحيد عن الشرع.

وكان يأخذ بمذهب الإمام ابن تيمية في مسألة الاستغاثة بالقبور، والاستشفاء بالموتى، منكرا على المبتدعة أشد إنكار.

ـ ١١ ـ

وصفه معاصروه بأنه كان آية من آيات الله في معرفة التفسير وحل مشكلات الكتاب

المبين، متضلعا في الحديث، متحصنا بالشريعة في كل علم يقرؤه من كلام، أو حكمة، أو تصوف، أو رياضيات، أو طبيعيات، وكانت لديه قدرة فائقة على استحضار الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في الاستشهاد بها على حل المشكلات الدينية.

وقد كان من العلماء الذين عنوا بتربية النفوس، وبتعليم التالين لهم دون أن يشغلوا أنفسهم بالتأليف، ومع هذا بقي له أثر مهم هو كتاب «عنوان البيان» لم يطبع منه غير المقدمة، وذلك قبل وفاته بسنة (١٨٩٨)، وكان سبب تأليفه أن نظارة المعارف كلفت كل مدرس بأن يجمع ما يلقيه من الدروس، وكان الشيخ حسن الطويل في ذلك الوقت يدرس التفسير بمدرسة دار العلوم.

— ١٢ —

· وفيما ينقله الأزهريون عن بعضهم قصتان عظيمتان تدلان على الجو الذي غذاه الشيخ حسن الطويل من عزة النفس والثقة بالله.

القصة الأولى : دخل عليه رياض باشا رئيس الوزراء وهو يدرس لطلابه بدار العلوم، فما غير موقفه أو بدل جلسته، وحين هم الزائر بالخروج قال له الأستاذ: لماذا لا أكون وزيرًا معكم يا باشا؟! فدهش الزائر وقال: أي وزارة تريد؟ فقال: وزارة المالية لأستبيح من أموالها ما تستبيحون!!

وكانت لطمة أليمة تُوجه إلى حاكم أرستقراطي لم يألف التهكم والاستخفاف، فخرج ثائرًا مهتاجًا، واستدعى ناظر المعارف (علي مبارك) ليعجل بفصله من وظيفته، ولكن يدا أعلى من يد (رياض باشا) تقف في وجهه فيتراجع عن غطرسته العاتية مدحورًا، وقد آثر ألاَّ يزور مدرسة أو معهدًا بعد ذلك.

القصة الثانية : طلب منه أن يرتدي ملابس خاصة ليقابل بها الخديو توفيق، وحان الموعد المرتقب، فجاء بملابسه المعتادة ومعه منديل يضم الملابس الرسمية،

ثم قدمها للخديو قائلًا في بساطة: إن كنت تريد الجبة والقفطان فهاهما، وإن كنت تريد حسن الطويل فهاأنذا حسن الطويل، ثم قال الشيخ لجلسائه: كيف أتجمل لتوفيق بلباس لا أتجمل به لربي في الصلاة؟

- ١٣ -

حكى العلامة أحمد تيمور باشا قصة تلمذته عليه، فذكر أنه لم يكن يعرفه، وأنه كان يسمع وصفه من قبل بعض الأزهريين بأنه زنديق، ولما كان تيمور باحثًا عن الحقيقة فإنه قال لنفسه:

«... إذا كنت لم أجد طلبتي عند مَنْ تسمونهم بالصلاح والورع، فلعلي أصيبها عند الزنادقة ، ثم سعيت في الاجتماع به ، وسألته القراءة عليه والاهتداء بهديه، فقرأت عليه العلوم العربية والمنطق، وأعدت عليه الصرف بتوسع، وعلوم البلاغة، ثم قرأت طرفا من الحكمة في شرح الدوائى على هياكل النور للسهروردي، وشرح «رسالة الزوراء» وغيرهما، ولما رآني مجدا في التحصيل قرر لي درسا ثانيا بعد العشاء كنا نقرأ فيه كتب الأدب ونحوها، وأنا في كل هذه المدة أستوضح منه ما أشكل عليّ فيحله لي، فكان اجتماعي به ومصاحبتي إياه من أكبر نعم الله عليّ في ديني».

- ١٤ -

توفي الشيخ حسن الطويل فجأة في القاهرة عام ١٨٩٩م، ويروى أنه لما توفي أذن المؤذنون على المآذن وكانت هذه عادة عند وفاة كبار العلماء، وقد شارك في تشييع جنازته: شيخ الأزهر الشيخ عبد الرحمن الشربيني، والشيخ محمد عبده مفتي الديار، والعلماء من تلاميذه في الأزهر ودار العلوم، وصُلى عليه في الأزهر، ودفن بمقابر المجاورين .

الباب الثاني

فكرة التعاون

الشيخ محمود خطاب السبكي

١٨٥٧م

-١-

يعرف الشيخ محمود خطاب السبكي في التاريخ المعاصر بأنه مؤسس الجمعية الشرعية وهي أكبر جمعية دينية إصلاحية واجتماعية غير مشتغلة بالسياسة، كما أنها بلا جدال أعظم مؤسسة تعاونية مصرية طيلة القرن العشرين وحتى الآن.

ينتمي الشيخ محمود خطاب السبكي إلى الجيل الوسط من العلماء الذين ولدوا وعاشوا فيما بين جيل الشيخ محمد عبده وزملائه، وجيل تلاميذه الشيخ المراغي وزملائه، وقد توجه في دعوته وفكره إلى إعلاء مجموعة من الأفكار النبيلة غير المتناقضة حتى تبلورت فكرته في إنشاء جمعية شرعية تعاونية أعلت من شأن عقيدة التوحيد على نحو ما فهمها، لكنها امتازت عن كل الجمعيات الإسلامية بالإيمان بفكرة التعاون وتطويرها على نحو غير مسبوق بها خدم قضايا التنمية والإصلاح الاجتماعي والاقتصادي على نحو عصري أبان عن سعة أفق الإسلام شريعة وعقيدة.

ومن الحق أن أشير في بداية هذا الباب إلى فضل كبير للدكتور محمود الطيب في ترجمته لكثير من مراحل حياة الشيخ محمود خطاب السبكي.

-٢-

اسمه بالكامل علي طريقة القرن الذي نشأ وتعلم وتخرج فيه : أبو محمد محمود ابن محمد بن أحمد بن خطاب السبكي الأشعري المالكي الخلوتي . وهو يوصف عند محبيه بأنه الفقيه المحدث المفسر الثقة الثبت ناصر السنة وقامع البدعة، المرشد الإمام الكبير.

ولأنه ينتسب إلى الأشراف من ناحية والدته فإن نسبها المثبت أنها هي السيدة

آمنة بنت محمد بن حسين، و ينتهي نسبها إلى الإمام علي الرضا بن موسى الكاظم ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر ابن الإمام علي زين العابدين ابن سيد الشهداء الحسين.

ـ ٣ ـ

ولد الشيخ محمود خطاب السبكي ونشأ في بلدة سبك الأحد الشهيرة إحدى قري مركز أشمون التابع لمديرية المنوفية سنة ١٢٧٤هـ (١٨٥٧م)، وفي المنوفية سبك أخري هي سبك الضحاك .

وأتيح للشيخ محمود خطاب السبكي أن يبدأ حياته الروحية بالتصوف حيث عرف الشيخ أبا محمد أحمد بن محمد جبل السبكي، الخلوتي، واشتغل بذكر الله، والصوم بالنهار، وقيام الليل، وانصرف للعبادة ، ثم أذن له شيخه السبكي أن يرشد المريدين إلى الطريق القويم.

ـ ٤ ـ

نشأ الشيخ في بيئة كريمة ، كان والده سيدًا في قومه، ذا بسطة في الرزق والجسم، محببًا بين عشيرته وعارفي فضله ، وورث ابنه منه الكرم والنبل والشجاعة وعلو الهمة.

ويروى في ترجماته العائلية أن والده أنجب ستة ذكور، كل اثنين من سيدة فُضْلى، فكان يبعث واحدًا للتعليم الأولي، ثم لتلقِّي العلم بالأزهر ، و يستبقِي الآخر يعمل معه في مزرعته الفسيحة الخصبة، ويعاونه على أعماله الأخرى. وكان من حظ الشيخ أن يبقى بجانب والده وقد وكل إليه والده رعاية غنمه فظهرت يقظته النادرة وعزيمته الوثابة، وحسن سياسته وكياسته، ثم عهد إليه بإدارة أمور الخيل التي كان يملكها؛ «فساس الجَموح منها مرة بالشدة وآونة باللين؛ فاستحال ذلولًا منقادًا» .

وبالإضافة إلى هذا أتقن الشيخ محمود خطاب السبكي مجموعة من المهارات الحرفية : النجارة، والحياكة، و البناء، و الزارعة ، والصيد وكان لا يخطئ الرماية، ويصل حب أتباعه له أن يقولوا عنه : انه كان «يصيب الطائر السريع سابحًا في جو السماء فيخر صريعًا، وأنه في الليل البهيم يصيد طيورًا معتمدًا على سماع صوتها» .

ـ ٥ ـ

وظل الشيخ محمود خطاب السبكي يساعد في إدارة أملاك أبيه إلى أن بلغ سن العشرين ،وقد تعلم القراءة والكتابة في زمن يسير، وحين طلب فجأة للتجنيد في سن العشرين(عند ما حدث من تغير في قواعد التجنيد) ذهب به أخوه إلى الأزهر في محاولة للهروب به من وجه السلطات لكنه بإذن ربه سبحانه وتعالى تعلق بالعلم وأهله ، وبالدراسة في الأزهر ومجاورته ، وأخلص في التلقي والاستيعاب على النحو الذي سنقرأه مفصلا في نهاية هذا الباب .

ولما التحق بحلقات الأزهر الشريف، تلقى العلم على مشاهير علماء عصره، وكان من أساتذته : شيخ الأزهر شمس الدين الأنبابي الشافعي .والشيخ سليم البشري المالكي.والشيخ أحمد الرفاعي المالكي.والشيخ إبراهيم الظواهري الشافعي وهو آخر شيخ للجامع الأحمدي قبل النظام الحديث .

وكان في أثناء طلبه العلم يواصل العمل بالوعظ والإرشاد على نحو ما كان قد تربي وأدى .

ـ ٦ ـ

نال الشيخ محمود خطاب السبكي شهادة العالمية بتفوق ، وقد احتفظت لنا ترجمة الشيخ المشهورة في أدبيات الجمعية الشرعية بتفصيلات امتحانه للعالمية :

«وفي يوم الأربعاء، اليوم التاسع والعشرين من شهر رجب سنة ثلاث عشرة

وثلاثمائة وألف (١٣١٣هـ) ١٥ من يناير سنة ١٨٩٦م أدى الشيخ الامتحان أمام اللجنة المكونة من حضرات أصحاب الفضيلة الأساتذة الأجلاء: الشيخ حسونة النواوي شيخ الأزهر ومفتي الديار المصرية، والشيخ بكزي عاشور الصِّدفي، والشيخ عمر الرافعي الحنفيين، والشيخ أحمد الرفاعي، والسيد علي الببلاوي المالكيين، والشيخ محمد حسين الإبريري، والشيخ سليمان العبد الشافعيين، ولقد كان إعجاب اللجنة به عظيمًا، وسرورها فائقًا، وجاوز الشيخ الميدان ظافرًا منصورًا!!» .

- ٧ -

هكذا حصل الشيخ محمود خطاب السبكي على العالمية بجدارة وتفوق ، و عمل بالتدريس بالأزهر مع مواظبته على ما كان قد نذر نفسه له من الوعظ وتوجيه المسلمين إلى ما اعتبره الطريق القويم، و قام بدعوته في إحياء السنة وإماتة البدعة .

وقد أخذ عنه العلم كثير من علماء عصره ، كان من بينهم الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر، والشيخ فتح الله سليمان رئيس المحكمة الشرعية العليا، والشيخ عبد السلام البحيري عضو المحكمة الشرعية العليا، والشيخ علي محفوظ الأستاذ بكلية أصول الدين، والشيخ سليمان نوار عميد كلية اللغة العربية، والشيخ محمود الغمراوي المفتش بالجامعة الأزهرية.

أما دروسه الدعوية فكانت حافلة بالذين اتبعوا سبيله في الجمعية الشرعية الذين كانوا يفدون للتعرف عليها.

وقد وصف أحد محبيه نشاطه في هذه الفترة فقال:

«بعدِ أن نال الشيخ إجازة التدريس عُنِيَ جد العناية في دروسه التي كان يلقيها في الأزهر المعمور وغيره على مئات الطلاب ببيان البدع الفاشية والخرافات المضلة، محذرًا الناس ،وبخاصة ذوي العلم، من ارتكابها والسير في طريقها المعوجة، مرشدًا

إلى العمل بهدي الرسول الأمين، وصحبه الطيبين الطاهرين، وبهذا تبين لكثير من أهل العلم أن ما يرونه محيطًا بهم من البدع والمنكرات في المساجد وسواها، لا يتفق ومبادئ الدين الحنيف، وأنهم مسؤولون أمام الله تعالى بتفريطهم وسيرهم في طرقاتهم، والعامة من ورائهم يعملون ويقدسون كما عملوا وقدَّسوا.

- ٨ -

وقد ظل الشيخ محمود خطاب السبكي محتفظا بوظيفته الحكومية في الأزهر الشريف إلى ما بعد الستين بكثير، وفي سنة ١٩٣١م أحيل إلى المعاش في مذبحة الأزهر حيث انعقد مجلس الأزهر الأعلى في الخامس من جمادى الأولى سنة ١٣٥٠هـ الموافق ١٧ من سبتمبر سنة ١٩٣١م، ليقرر ما أسميته ولا زلت أسميه مذبحة الأزهر التي بلغ فيها عدد المحالين إلى المعاش والمفصولين من الأزهر والمعاهد الدينية سبعين عالمًا ، واشتغل الشيخ بعد ذلك بالعلم والتأليف إلى أن توفاه الله بعد هذه المذبحة بأقل من عامين.

- ٩ -

نأتي إلى أعظم أعمال الشيخ محمود خطاب السبكي وهو تأسيسه للجمعية الشرعية ، وينبغي هنا أن نشير إلى حقيقة مهمة لم يشر إليها أحد من تلاميذه ولا من مؤرخي الجمعية وهي أن العالم كان يشهد في ذلك الوقت ازدهار فكرة التعاون والتعاونيات كمنهج اقتصادي اجتماعي واعد ، وأن سعة اطلاع الشيخ وطموحه وتأمله كل أولئك دفعه إلى استكشاف فكرة التعاون الأصيلة في الإسلام ومنهجه الاجتماعي والإصلاحي والاقتصادي ، وهكذا هداه له إلى أن يجعل التعاون مظلة لرسالته التربوية والإصلاحية التي كان قد سار فيها خطوات واسعة بالفعل.

و في سنة ١٩١٢م (حين كان في حدود الخامسة والخمسين من عمره) أسس الشيخ محمود خطاب السبكي الجمعية الشرعية، ووضع لها قانونها وأغراضها

ونظامها ، وتولى رئاستها، وجذب إلى دعوته النابهين من علماء الأزهر وطلابه ، ومن تجار الخيامية ، و من رجال بلدته ، وأتبع دعوته الإصلاحية بالعمل الجاد المثمر فأنشأ مصنع المنسوجات و شركة المنسوجات الوطنية بادئا نواة للاستقلال الاقتصادي ،وتشغيل الأيدي العاملة .

ومن خلال هذه الجمعية نجح الشيخ محمود خطاب السبكي في إنشاء عدد كبير من المساجد في مختلف مدن القطر المصري .

وقد انتشرت الجمعية في خارج مصر وأصبح لها فروع في الشام، والسودان أيضا.

ـ١٠ـ

وتشير أدبيات الجمعية إلى أنها تأسست في يوم الأربعاء غرة المحرم سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة وألف (سنة ١٣٣١هـ) ١١ من ديسمبر سنة ١٩١٢م باسم «الجمعية الشرعية، لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية» .

و كانت مواد قانون الجمعية ترشد بوضوح ودقة إلى عملي الدنيا والآخرة ، وتدعو إلى الحسنيين.

وقد سارت الجمعية على هذا القانون بإشراف مجلس إدارتها تحت رئاسة الشيخ ، وكانت حسب وصف كتابها المجيدين تتقدم باطراد في كل عام بفضل رجالها الذين صفت نفوسهم، واعتمدوا على بارئهم في جميع شؤونهم، يفرون من الكسالى المتعطلين والخاملين فرار السليم من الأجرب، وإذا فتشت بين صفوفهم فلا ترى متسولًا ولا متسكعًا؛ بل ترى كل من انضم إلى هذه الجماعة قد سق لنفسه طريقًا في الحياة يسلكه إلى عمل مشروع، شأن المسلمين في صدر الإسلام.

أثبتت الجمعية الشرعية نجاحات متعددة كان في مقدمتها نشاط وعاظها الذين

اختارتهم من بين أفرادها المثقفين المدربين؛ للقيام بتعليم العامة أصول الدين وفروعه في دروسهم ومحاضراتهم، لا يفترون عن غرس مبادئ الدين الصحيحة في نفوس إخوتهم المؤمنين، وكان شعارهم أن اللين رائدهم، والرفق حليفهم، والموعظة الحسنة ديدنهم، والحكمة وسداد الرأي قبلتهم، سمحاء حنفاء، لا مشددين ولا معسرين ولا متنطعين ولا رجعيين.

ـ ١١ ـ

تولت الجمعية إنشاء مساجد عديدة في مدن الجمهورية وقراها، وفي مقدمتها المسجد الكبير بالقاهرة (في عطفة الشيخ السبكي بشارع الخيمية على مقربة من باب زويلة «بوابة المتولي» وجامع الوزير طلائع بن رزيك الأثري)، وكان الفراغ من بنائه وتنسيقه سنة ١٣٤٢هـ .

وعرفت الجمعية بكثير من مشروعات تنموية أخذت تقوم بها في المجالات الاجتماعية و الطبية و التعليمية، ومن هذه المشروعات التي أثبتت ريادة فيها:

- تشغيل أمهات الأيتام .
- إنتاج وتوزيع الخبز بالمجان .
- قوافل الخير .
- مشروع تربية رؤوس الماعز.

ـ ١٢ ـ

ونتنقل الآن إلى الإنتاج العلمي للشيخ .

عرف الشيخ محمود خطاب السبكي بكتابه : «المنهل العذب المورود» الذي شرح فيه كتاب «سنن الإمام أبي داود». وقد وصل في شرحه إلى باب (الهدى من

كتاب المناسك) متمما عشر مجلدات من شرح كبير حافل عني فيه برجال السند وطرق الحديث وبيان مذاهب الفقهاء بالدليل غالباً ؛ وصف بأنه لا نظير له في بابه ، ويعد أكبر شرح على السنن متداول بين أيدي العلماء والطلاب .

وقد استكمل ابنه العلامة الشيخ أمين بن محمود السبكي جهد والده في أربعة مجلدات أسماها «فتح الملك المعبود» ، وصل فيها إلى آخر (كتاب الطلاق) من سنن أبي داود ، ولعل الله سبحانه وتعالى يقيض لهذا الكتاب المفيد من يتمُّه .

وصف شرح الشيخ محمود خطاب السبكي للسنن بأنه مشابه لطريقة العيني في عمدة القاري حيث يطيل في التراجم ويتوسع في شرح الكلمات ويهتم بوصل ما علقه أبو داود

ويقال أيضا : أن منهج الابن الشيخ أمين مقارب لمنهج الأب إلا أن الأب أطول نفساً .

وقد اعتنى الشيخ مصطفى بيومي بوضع فهارس للعشرة أجزاء المطبوعة من «المنهل العذب المورود» ، وسمي كتاب الفهارس هذا «المفتاح» ، وقد طبعت هذه الفهارس أيضا .

ـ ١٢ ـ

قدّم الشيخ محمود خطاب السبكي لشرحه بمقدّم موجزة بيَّن فيها سبب تأليفه، ومنهجه فيه فقال :

«... لما شرعتُ بعون الله تعالى وتيسيره في قراءة سنن الإمام الورع الثبت الحجّة أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (في ربيع الآخر من سنة ١٣٤٣ ثلاث وأربعين وثلثمائة وألف هجريّة) ، وكانت نُسخ ذلك الكتاب نادرة الوجود، وقد صعُب على الطلبة اقتناؤها، أردتُ طبعه ليسهل الحصول عليه، ويعمّ النفع به،

فطُلب منّي أن أكتب عليه شرحاً يكشف عنه النِّقاب، ويوضّح ما فيه للطلاب، إذ لم يكن مشروحاً شرحاً وافياً، فشمّرتُ عن ساعد الجدّ والاجتهاد، واستعنتُ بالملك المقتدر الهادي إلى سبيل الرشاد، وشرحته شرحاً واضحاً غاية الإيضاح: مفصِحاً عن معانيه كل الإفصاح. وتَوخّيتُ فيه تأييد الحقّ، وقوّيته حسبما وصل إليه الجهد، وسمّيتُه: المنهل العذب المورود شرح سنن الإمام أبي داود» .

«وقد عنيت فيه ببيان تراجم رجال الحديث. وشرح ألفاظه، وبيان معناه. وما يُستفاد منه من الأحكام والفوائد. مبيِّناً أوجه الخلاف، وأدلّته إن كان» .

«ثمّ أذكر مَن أخرَج الحديث غير المصنِّف؛ سواء كان من الأئمة الستّة أم غيرهم. وأبيّن حاله من صحّة أو حُسن أو غيرهما . سالكاً في ذلك سبيل الإنصاف، متنكِّباً طريق الاعتساف».

«ولإتمام الفائدة بدأتُ بذكر مقدّمة تشتمل على : نبذة من مصطلح الحديث. وعلى ترجمة المصنِّف وتلاميذه. وبيان النُّسخ المرويّة عنه. وأسانيد روايتي هذه السنن عن المصنِّف. وأسأل الله تعالى أن يجعله عملاً مقبولاً لديه ، خالصاً لوجهه الكريم، ولا اعتماد في شيء إلا عليه» .

ـ ١٤ ـ

والحق أن الشيخ محمود خطاب السبكي نجح في التعريف بسنن أبي داود كما عرَّف به أيضا، وبطريقته في السّنن، وتميز كتابه بمنهجية واضحة:

- يأتي أولاً بما يعرفه عن رجال الحديث منبهاً على اختلاف الروايات من زيادة ونقصان .. أو نحو ذلك حسب طاقته ومعرفته .
- يعني بضبط الأسماء واللغات
- يبين معنى الحديث، ومأخذ كل مذهب مع استيفاء ذلك من المصادر الموثوق

بها ، وفي هذا الباب كان يأتي بالفوائد الفرائد التي لا يفضله فيها أي شرح آخر مطبوع على سنن أبي داود .

- يلخِّص ما ذكره في الباب السابق تحت عنوان: «فقه الحديث» .
- يعرف بمَن أخرج الحديث، وفيه يأتي بغرر النقول من كلام أئمة هذا الشأن
- يعتني بتحرير المسائل التي اشتهر الخلاف فيها .

وقد توسع الشيخ محمود خطاب السبكي جدا في هذا الأسلوب الذي اتبعه في الجزء الأول ؛ أما في الأجزاء الباقية فقد لزم بعض الاختصار .

وقد طبع الكتاب في مطبعة الاستقامة، بالقاهرة، سنة: ١٣٥١ هـ .

— ١٥ —

ألف الشيخ محمود خطاب السبكي كتبا كثيرة تتصل جميعها بالميادين الدعوية :

- أعذب المسالك المحمودية في التصوف والأحكام الفقهية (أربعة أجزاء).
- حكمة البصير على مجموع الأمير، في فقه الإمام مالك (أربعة أجزاء).
- الدين الخالص، أو إرشاد الخلق إلى دين الحق. في تسعة مجلدات
- إصابة السهام فؤاد مَنْ حاد عن سنة خير الأنام.
- الرسالة البديعة الرفيعة في الرد على من طغى فخالف الشريعة.
- العهد الوثيق لمن أراد سلوك أحسن طريق.
- النصيحة النونية في الحث على العمل بالشريعة المحمدية.
- سيوف إزالة الجهالة عن طريق سنة صاحب الرسالة.
- المقامات العلية في النشأة الفخمة النبوية.

- السم الفعال في أمعاء فرق الضلال.
- الصارم الرنان من كلام سيد ولد عدنان.
- العَضْب المنظوم للذّب عن سنة المعصوم.
- الرياض القرآنية في الخطب المنبرية.
- خلاصة الزاد لمن أراد سلوك سبيل الرشاد.
- رسالة البسملة.
- إتحاف الكائنات ببيان مذهب السلف والخلف في المتشابهات.
- محور الوصول إلى حضرة الرسول.

وهذه بعض الكتب لم ترد في البيليوجرافيا التي تضمنتها ترجمة الجمعية الشرعية:

- هداية الأمة المحمدية، خطب منبرية.
- تحفة الأبصار والبصائر.
- حاشية على الرسالة البديعة.
- المقالة الشرعية للرئاسة الإسلامية.
- غاية البيان.
- العهد الوثيق.
- النصيحة النونية.
- تعجيل القضاء المبرم .

ـ ١٦ ـ

على الرغم مما هو معروف للعامة من أن الجمعية الشرعية جمعية سلفية ، وهو ما يستتبع بالمفهوم الشائع ألا تكون صوفية فقد كان الشيخ محمود خطاب السبكي من

أعلام الصوفية في جيله، ولا نزال نرى اختلافا في آراء الكتاب الاسلاميين في صوفية الشيخ، و لهم العذر في ذلك لما كان معروفا من شدة تمسك الشيخ بالسنة، وما عرف أيضا عن أن الشيخ بلغ مبلغًا في الطريق أهَّله لأن يقوم مقامًا حاكمًا يدفع فيه انتحال المبطلين ، فلم يكن من شأن الشيخ إنكار التصوف أو الرجوع عنه ؛ بل كان من شأنه تصحيح أحوال أهل التصوف على الأصول والقواعد، التي قعَّدها الأئمة من قبله، وما أكثر هؤلاء الأئمة الذين صنعوا صنيعه.

بدأ الشيخ طريق التصوف على يد الشيخ أحمد بن محمد أبي جبل السبكي الخلوتي رحمه الله تعالى، ولقنه الشيخ الأوراد والأذكار، فاشتغل بذكر الله كثيرًا وجَدَّ في الطاعة، فكان يصوم النهار ويقوم من الليل مقبلًا على مناجاة ربه علام الغيوب في الأسحار، فلاحت عليه علامات السعادة؛ ومن ثم أدخله الخلوة، ومن ثم ألبسه الخرقة، فأفعم قلبه بالأنوار، واستنار سره بالأسرار، وصقلت مرآة قلبه بتوالي واردات التجليات العرفانية؛ فعاين الحقيقة كما هي في الحقيقة، ووقف على عرفات المعرفة، وفر إلى الحق مجيبًا إياه: لبيك لبيك لبيك. وأيقن شيخه أن غرسه آتى أُكُله بإذن ربه؛ فأجازه في طريق القوم، فتصدر لإعطاء العهود، وتلقين الأوراد، ونحو ذلك من شؤون الطريق، وكان عمر الشيخ يومئذ اثنين وعشرين ربيعًا.

ويذكر كذلك أنه اخذ عن أئمة الطرق الصوفية المختلفة ، فأخذ عن الرفاعية والشاذلية والنقشبندية والبيومية والأحمدية والإبراهيمية، وغير ذلك من الطرق المشهورة !! .

ـ ١٧ ـ

و للشيخ محمود خطاب السبكي أقوال في التصوف لابد لنا من أن نطلع القارئ على بعضها ، وهي أقوال رقيقة وموحية ، ومنها قوله :

«اعلم أن التصوف هو الجد في السلوك إلى ملك الملوك، مع الأخذ بالأحوط من

الأحكام ... ولذا قالوا: الصوفية قعدوا على الدعائم الأصلية ووقف غيرهم على الرسوم؛ ومن هنا فازوا فوزًا عظيمًا وبلغوا من الكمالات ما لم يصل إليه غيرهم، ولكن لا سبيل لك أيها الإنسان إلى ذلك إلا بمجاهدة النفس ليلًا ونهارًا بهمة قوية، كما أن التصوف هو الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرًا وباطنًا، فيرى حكمها من الظاهر في الباطن، ومن الباطن في الظاهر؛ فيحصل من الحكمين كمال لم يكن بعده كمال» .

«واعلم أن طلب الكمال من أشرف الخصال، والكمال هو التخلي عن الأوصاف الذميمة والتحلي بالأوصاف الحميدة» .

«تجرد من الشواغل الدنيوية كلها إن أمكن، أو بقدر ما يمكن؛ لأنك تريد الدخول في حضرة ربك التي هي كناية عن الإقبال التام على الله عز وجل، والإعراض عن كل ما سواه، حتى عن نفسك. وأنت جالس في مكان طاهر مظلم معظم مطيب بالروائح الزكية كجلوسك للصلاة، واضعًا يديك على فخذيك مغمضًا عينيك؛ لأنه بتغميض العينين تنسد طرق الحواس الظاهرة، وسدها يكون سببًا لفتح حواس القلب، لابسًا الثياب البيض الحلال المطيبات بالروائح البهية وكذا الفم والبدن، مبعدًا الراوئح الكريهة ، لأن الروحانيين لا يقبلون الروائح الكريهة، وبانقطاعهم عن مجلس الذكر ينقطع المدد، مستأذنًا أهل الطريق ورسول الله ﷺ والحضرة الإلهية في دخول حضرة الذكر، التي هي حضرة الله تعالى، جاعلًا خيال شيخك بين عينيك؛ ليكون رفيقك في السير إلى الله تعالى لا لكونه مقصودًا لذاته ؛ حتى يكون منافيًا للتجرد عما سوى الله، أو يكون إشراكًا في العبادة والعياذ بالله تعالى، خلافًا لما يتوهمه بعض القاصرين؛ فالمقصود هو الله تعالى وحده، واستحضار الشيخ إنما هو لتتحصل على مقصودك؛ لأن الوصول عادة لا يكون إلا بدليل، وإذا وجد الدليل لا يجد الشيطان له مدخلًا معك حتى يحولك عن الطريق؛

ولذا كان استحضار الشيخ من أهم الآداب» .

ـ ١٨ ـ

أختم هذا الباب بما وعدت به من رواية قصة تحول الشيخ من الزراعة والرعي وحياة الريف إلى طلب العلم على نحو ما توردها ترجمته المشهورة والمعهود روايتها عند اتباعه ، وقد آثرت ألا أتدخل في غزلها المنسوج على طريقة بديعة في الحب والأسلوب إلا ببعض الاختصارات الضرورية :

....

«........ بدأ الشيخ حياته مزارعًا أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، وبينما هو جالس ذات يوم في بستان أبيه إذ دخل عليه ابن عم له بيده لوح صغير به حروف الهجاء، فاشتاقت نفسه أن يتعلمها، فاتصل بمعلم القرية فكتبها له فقلد الإمام كتابتها، وما أعظم دهشة المعلم حينما رأى خط تلميذه اليافع أحسن من خطه، وما هي إلا أيام تعدُّ على الأصابع حتى صار الشيخ السبكي يُجيد الكتابة والقراءة» .

«ثم تاقت نفس الشيخ إلى الرحلة لتلقي العلم في الجامع الأزهر المعمور، وبينما هو يناجي مولاه سَحَرًا، جدَّ في الدعاء طالبًا أن يمن عليه المنعم الوهاب بمعرفة العلم ويسهل له طريقه» .

«وما مضى على دعائه أسبوع إلا وقد أُشيع بين الناس أن الحكومة التي كانت لا تجند أولاد العُمد، غيرت طريقتها؛ فأشار الشيخ خطاب رحمه الله ، وهو الأخ الأكبر- على أبيه، أن يأخذه معه إلى الجامع الأزهر؛ ليتمكن من الحصول على شهادة المعافاة من الخدمة العسكرية بانتسابه إلى الأزهر. وهو - أي: الأزهر- إذ ذاك الحرم المكين مَنْ دخله كان آمنًا، وبعد أخذ وردٍّ سافر الشيخ مع أخيه الشيخ خطاب العالم الجليل» .

«وما كادت عينه تبصر السادة العلماء، وبين أيديهم تلامذتهم، حتى تملك هذا

المنظر سويداء قلبه، واستولى على مشاعره كلها، وأخذت الآمال تملأ جوانحه حتى فاضت على لسانه؛ إذ فاتحه أخوه الشيخ خطاب في الذهاب إلى أستاذ كبير يُشَار إليه بالبنان (المرحوم الشيخ حسن العدويِّ) وكانت بينهما صداقة وثيقة؛ ليسهل له شهادة المعافاة، فيعود على جناح السرعة إلى والده مخفِّفًا عنه هذا العبء الثقيل من أعماله، إذ كان يقوم بأوفر قسط منها؛ فقال الشيخ محمود: هيهات!! وكيف أترك هذه الضالة المنشودة، وهل أضيع على نفسي مأربها وبغيتها؟ لا بد من الانضمام إلى هذه الأسرة الدينية؛ لأكون فردًا منها، ولا بدَّ من الجلوس بين هذه الحلقات العلمية ردحًا من الزمن، مفارقًا تلك الحلقات الريفية، مترحمًا على الأيام الطويلة التي قضيتها بين ذويها وأترابها!!» .

«دهش كل الدهش أخوه؛ إذ يراه قد جاوز العقد الثاني من عمره، فأصبح طلب العلم عليه غير هين؛ وأدرك الشيخ محمود هذا فقال: قد تسبق العرجاء: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ١٠٥]» .

«ثم أقبل الشيخ محمود على مطلوبه (أي هدفه) أيما إقبال، فكان في اليوم الواحد يحفظ قسطًا من كتاب الله تعالى، ومقدارًا من المتون الأزهرية على الطريقة المألوفة إذ ذاك، ويتردد على حلقات العلم يتزود منها ما شاء الله، ومضى عليه نصف عام كامل، فهل يدور بخلدك أن هذا التلميذ الناشئ، في مُكنته أن يكون أستاذًا لمبتدئين يتلقون عنه دروس العلم في المساء، ويشرف علي بعض المعلمين المعجبين بذكاء ابن الريف المتقدم في سنه!!

«وما زال مجدًّا مواصلًا ليله بنهاره، غير مقتصر على أن يملأ مخيلته بالمسائل العلمية يردِّدها لسانه؛ بل وضع نُصْب عينيه العمل بما يتطلبه العلم، موقنًا أن الطالب لذلك هو الله تعالى ورسوله، شاعرًا أن وراءه أبناء الحلقات الريفية، وهم

الذين خيم الجهل عليهم فما يدرون حلالًا ولا حرامًا، وما يفرقون بين وليٍّ ولا نبي!!وهؤلاء لا بد أن تجمع الأيام بينه وبينهم، فتنقلب هذه الحلقات الدنيوية حلقات دينية، يرى المجتمعون فيها من كان على شاكلتهم أضحى لهم معلمًا، ومعلم هذه الطبقات ترمقه عيونهم، وتصغي إلى قوله آذانهم، فإن عمل بما أرشدهم إليه التفوا حوله وقدسوه، وإن اعوجّ انفضوا من حوله واحترزوه» .

«لبث الشيخ يتلقى عن أساتذته الأجلاء بالجامع الأزهر المنير، ويلقي في أوقات فراغه دروسًا شتى على بعض الطلاب، ويرشد أبناء الريف إذا ما رجع إليهم. فكان أزهريًا بين الأزهريين، وواعظًا مرشدًا بين الريفيين، وما رضي الشيخ أيام طلبه العلم أن يتناول جراية من أوقاف الأزهر، ولا أن يدون اسمه بين دفاتره، وما كان شغله الشاغل إلا التفاني في العلم، والتحلي بالعمل، وهو ثمرة العلم!» .

«وخلال هذه الفترة، أشار عليه أحد تلامذته أن يتقدم إلى الامتحان، لتعليم أبناء الأزهر ومن سواهم، بعد نيله الشهادة كيما يساير الناس؛ وهم يعتقدون أن العلم لا يؤخذ إلا ممن لديه هذه الشهادة، فانشرح صدره ووضع الرسالة وقدمها، وبعد البحث اتضح أن اسمه غير مدرج في سلك الطلاب، ولم تكن له مدة معلومة فلا يقبل طلبه، ولكن الله القدير يَسَّر له الـ.ـعاب!!» .

ـ ١٩ ـ

توفي الشيخ محمود خطاب السبكي يوم الجمعة الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٢ هـ (٧ يوليو سنة ١٩٣٣ م). و دفن فيما سمي المقبرة الشرعية في قرافة باب الوزير. و يروى أنه في صبيحة يوم وفاته أطل على بعض تلامذته من نافذة حجرته، فناوله آخر ملزمة من الجزء السادس من شرحه لسنن الإمام أبي داود «المنهل العذب المورود»، كان الشيخ يصححها لترسل إلى المطبعة.

أما ذرية الشيخ فكانت خمسة من الأبناء المشايخ.

الباب الثالث

فكرة الاستيعاب
الشيخ إبراهيم الجبالي
١٨٧٨م

- ١ -

كان الشيخ ابراهيم الجبالي داعية من أبرز الدعاة للإصلاح الاجتماعي وكان يعتمد منهج الإصلاح الفكري الأصيل . وكان كاتبا متميزا للمقال الاجتماعي الهادف، وكان يبدأ مقالاته بآيات من القرآن الكريم، ويركز على القيم الدينية.

وقد كانت للشيخ الجبالي مكانة عظيمة بين أنداده وقد عده أقرانه وتلاميذه أفضل العلماء في تناول المسائل الفلسفية والعقيدية التي شغلت الرأي العام في الربع الثاني من القرن العشرين، وقد انفرد وتفوق في مجالين وجه لهما عنايته فساعداه على سعة أفق نادرة :

- أثر السياسة في نشأة الفرق الإسلامية من المتكلمين .
- أثر الضيق الفكري في نشأة خلافات علم الفقه.

وفي هذين الانجازين وغيرهما كان قادرا على فهم وتفهم وتأصيل وجهات النظر المختلفة والتوفيق بينها من أجل الإصلاح ، وهو ما دفعني إلى اختيار اسلوبه نموذجا للاستيعاب بمعناه الواسع وهو أسلوب إصلاحي يضع أساسا فكريا أصيلا لتجاوز الخلافات إلى تحقيق الائتلافات.

- ٢ -

ولد الشيخ ابراهيم الجبالي في الرحمانية مركز شبراخيت من أعمال مديرية البحيرة في غرة المحرم سنة ١٢٩٥هـ الموافق ٥ من يناير ١٨٧٨م و كان والده فضيلة الشيخ حسن الجبالي من رجال العلم .

وقد حفظ القرآن الكريم وأجاده في سن مبكرة فأرسله والده الشيخ حسن لكي يتلقى العلم في الأزهر فالتحق به وهو في الثانية عشرة من عمره ، فنبغ فيه متفوقا مبرزا .

وقد حصل على شهادة العالمية من الدرجة الأولى وكان ذلك في ١٨ من ربيع الآخر سنة ١٣٢٢هـ الموافق يوليو ١٩٠٤م وكان زميلا في الدراسة والامتحان والتخرج للشيخ محمد مصطفي المراغي .

وبعد أن عمل الشيخ الجبالي فترة قصيرة بالتدريس في الأزهر الشريف بعد حصوله على العالمية عين مدرسا بمعهد إسكندرية الديني، في فترة ازدهاره ونموذجيته، على حين اختير الشيخ المراغي للعمل في السودان .

وكان الشيخ محمد شاكر شيخ العلماء بالإسكندرية وعميد المعهد يراقب الدروس مراقبة فاحصة، فقرر اختيار الشيخ إبراهيم الجبالي مراقبا للمعهد، وهي الوظيفة التي تلي المشيخة حينئذ، فبذل من الاهتمام البالغ بالطلاب ما جعلهم بمثابة الطليعة الأزهرية في تلك الحقبة .

ـ ٣ ـ

هكذا تحققت للشيخ زعامة علمية وروحية مبكرة أضاف اليها أنه كان يخطب الجمعة كل أسبوع في مسجد المعهد، وقد وصفت خطابته بأنه كان يأتي بضرب من الوعظ لم يعهد في عصره. وكان من الطبيعي أن ينحاز إلى دينه ووطنه فيما يعظ به ، ولهذا فقد أوقفته سلطات الاحتلال البريطاني لمصر عن الخطابة عقب قيام الحرب العالمية الأولى مباشرة .

ـ ٤ ـ

لما انتهت الحرب وقامت ثورة ١٩١٩ كان مع شيخ المعهد السكندري الشيخ عبد المجيد اللبان أكبر مؤيدي الحركة الوطنية بزعامة سعد زغلول، وشارك في تنظيم احتفال الإسكندرية بالثورة .

وفي أثناء ثورة ١٩١٩ تم انتدابه للتدريس بالجامع الأزهر في شهر صفر

١٣٢٨هـ نوفمبر ١٩١٩م.

ثم عين شيخا لمعهد أسيوط في ١٣ من المحرم ١٣٢٩هـ ٢٦من سبتمبر ١٩٢٠م فبذل جهودا عظيمة في النهوض بهذا المعهد . وبسبب ذلك النجاح أُنعم عليه بكسوة التشريفة العلمية.

ثم نقل إلى معهد الزقازيق في ٢ من ربيع الأول ١٣٤٢هـ الموافق ١٢ من أكتوبر ١٩٢٣م

ـ ٥ ـ

فيما يبدو أنه حدث مع تولي سعد زغلول والوفد مقاليد الأمور ثم نقله إلى القاهرة لرئاسة التفتيش بالأزهر والمعاهد الدينية، ثم وقع عليه الاختيار ليكون مفتشا بوزارة المعارف العمومية .

وفي الفترة التي اختير فيها للقيام بالتفتيش بالمدارس الثانوية بوزارة المعارف، تمكنت الوزارة من الانتفاع بآراء الشيخ في إعداد المناهج الدينية بالأقسام المختلفة. وكأنه عين مفتشا بوزارة المعارف ليلمس أوجه القصور في عمله الميداني، وقد انتهزها فرصة لإذكاء الروح الدينية، وإشباع الجو العام بالشعور الإسلامي، إذ كان يحرص على الاجتماع بهيئة التدريس في مختلف المواد، ومع رجال الإدارة من النظار والوكلاء والمراقبين، ثم يؤمهم للصلاة بمسجد المدرسة ظهرا أو عصرا وفق زمن الزيارة، إذ كان اليوم الدراسي كاملا، ، فإذا انتهت الصلاة ألقى موعظة هادفة، وتعرف إلى المجتمعين ملاطفا محييا، ثم ودع بمثل ما استقبل به من الاحتفاء.

ـ ٦ ـ

اختير عضوا بمجلس الشيوخ في ٢٣من فبراير ١٩٢٤م في عهد وزارة الشعب

الأولى وقد عين معه في هذا المجلس الشيخ حسين والي ، وتعاون الشيخان في الدعوة إلى إرساء القواعد الإسلامية، ووجوب العناية بالثقافة الإسلامية في التعليم، وكان ينادي بضرورة حفظ القرآن الكريم أو نصفه على الأقل بالمدارس الثانوية وما في مستواها، وبمدارس المعلمين والمعلمات بنوع خاص.

وفي هذه الفترة تولى أيضا القيام بدروس تربوية لطلبة القسم العالي بالأزهر، وفي هذه الدروس ظهر اهتمامه المبكر بتكوين رجال الوعظ قبل أن ينشأ هذا القسم رسميا سنة ١٩٢٨ ، وكان يختار آيات الآداب الخلقية، لتكون مادة للإرشاد، مع الإلمام إلماما موجزا بما تتطلبه الصنعة النحوية والبيانية، ليعكف على توضيح مقاصد الذكر الحكيم.

....

ـ ٧ ـ

ومن الجدير بالذكر أنه كان قد اختير عضوا في لجنة لمواجهة التبشير ، وكان ذلك في ٢٤ من ربيع الأول ١٣٥٢ هـ الموافق ٧ من يوليو ١٩٢٣ م .

وفي ١٩٢٥ تم تعيينه شيخا لمعهد الزقازيق بعد أن اكتمل بناؤه و بعدها بعامين تم انتدابه لرئاسة امتحانه شهادة العالمية ١٩٢٧م

ومع حدوث الانقلاب الدستوري على عهد محمد محمود باشا أحيل الشيخ الجبالي ظلما وعدوانا إلى المعاش ١٩٢٨م فاشتغل من فوره بالتدريس في المعاهد العالية .

ـ ٨ ـ

ثم اختير الشيخ الجبالي ليتولى التدريس بالقسم العالي بالأزهر، في مرحلة

التخصص، ودعى إلى تحرير مجلة الأزهر (نور الإسلام سابقا).

اختير الشيخ الجبالي كذلك عضوا في لجنة لتفسير القرآن الكريم . عاد الوفد إلى الحكم في ١٩٣٦ ، وعادت الدولة للاستفادة من علم الشيخ إبراهيم الجبالي وجهوده.

-٩-

انتخب الشيخ إبراهيم الجبالي عضوا في جماعة كبار العلماء في ٨ من مارس١٩٣٧م.

وعين الشيخ الجبالي وكيلا لكلية أصول الدين ٨ من مارس ١٩٣٧م ثم عين شيخا لمعهد طنطا ٢٢ من أغسطس ١٩٣٨م ثم شيخا لكلية اللغة العربية ٧ من ذي القعدة ١٣٦٣هـ الموافق ٢٤ من أكتوبر ١٩٤٤ ثم تمت إحالته إلى التقاعد في عهد وزارات الأقلية.

هكذا تحمل الشيخ إبراهيم الجبالي عبء ما لم يسبق لغيره من المناصب ، ومواقع المسؤولية ، فقد كان بمثابة الشخصية الثانية في معهد الإسكندرية ثم تولي مشيخة المعاهد الدينية في أسيوط و الزقازيق وطنطا ووكالة كلية أصول الدين وعمادة كلية اللغة العربية .

-١٠-

كان الشيخ الجبالي أحد العلماء الذين تفوقوا في تفسير القرآن الكريم بمجلتي نور الإسلام (الأزهر حاليا) وهدي الإسلام ، ونبدأ هذا الحديث المختصر عن قيمته بين مفسري القرآن بتعداد آثاره في التفسير وعلوم القرآن:

- ١-تفسير سورة النور(وهو أشهر أعماله) .
- ٢- تفسير خمس آيات من سورة البقرة(٢٧٥-٢٧٩) .

- ٣- تفسير خمس آيات من سورة آل عمران (١٣-١٣٤) .
- ٤- تفسير آية من سورة الروم(٣٩) .
- ٥- تفسير سورة الإخلاص.
- ٦- تفسير سورة الحجرات.
- ٧- تفسير سبع آيات من سورة الأعراف (٤٢-٤٩) .
- ٨- تفسير إحدى عشرة آية من سورة النحل (٩٠-١٠٠) .
- ١٠- تفسير ست آيات من سورة آل عمران (١٠٢-١٠٧) .
- ١١- تفسير ثلاث آيات من سورة فصلت ٣٠-٣٢.
- ١٢- تفسير اثنتي عشرة آية من سورة الصافات (٩٩-١٠٠) .
- ١٣- تفسير ثلاث آيات من سورة الأعراف (١٧٢-١٧٤) .
- ١٤- تفسير سورة الرعد.
- ١٥- تفسير إحدى وعشرين آية من سورة لقمان (١-٢١) .

وله مقالان في علوم القرآن :

- الأول : الكلام في ترجمة القرآن.
- والثاني : النسخ.

ـ ١١ ـ

كان منهج الأستاذ الجبالي في تفسيره للقرآن هو الإلمام بما يختاره من أقوال السابقين، مع التعقيب عليه بما يراه، في نسق مطرد متماسك، فهو لا يسرد هذه الأقوال سردا رقميا جافا، بل يصوغها ببراعة كاشفة، وفي تعبير جميل يجذب القارئ إليه.

وكان الأستاذ الجبالي في تفسيره للقرآن يستطرد شأنه شأن الشيخ محمد رشيد رضا إلى الحديث عن هموم العصر الاجتماعية حديثا متشعبا، وهنا نذكر أنه أفاض في

قضايا الأسرة، وما يتعلق بالطلاق والزواج والحجاب والاستئذان، وحقوق الزوج مقارنة بحقوق الزوجة

وكانت استطراداته في تفسير القرآن بمثابة دراسات مستفيضة تصلح أن تكون موضع مقالات ودراسات مستقلة !

ويذكر له أهل ذلك العصر أنّه اهتم يعرض وعلاج مشكلات مجتمعة من خلال قراءة النصوص القرآنية وتفسيرها ، وبهذا كان تفسيره للقرآن مضرب المثل في الإصلاح الاجتماعي على هدى من الدين الإسلامي .

ـ ١٢ ـ

وقد وصف الشيخ الجبالي نفسه منهجه في التفسير فقال : إنه بذل جهد المستطاع حين «لخص زبدة ما اختاره من كلام أئمة التفسير مضيفا إليه ما فتح الله به عليه في أثناء تدبره للنص الشريف مما انشرح له صدره، وراق في نظره متسقا في أسلوب يناسب الذوق المعاصر» .

ـ ١٣ ـ

أكثر الشيخ الجبالي من التفسير بالرأي إلى الحد الذي جعل العلماء المعاصرين له والتالين يعدون ما كتبه من تفسير ضمن «التفاسير بالرأي المحمود» ، ويقولون: إنه لم يحفل الشيخ كثيرا بالتفسير بالمأثور بأنواعه الأربعة اللهم إلا إفادته من الحديث النبوي الشريف في توضيح معنى ما يستنبطه من الآية فقط ، فتفسيره إذا من التفسير بالرأي الموشى بقليل من الأثر.

أما منهجه في استعراض أسباب النزول فهو منهج جدير بالنظر و الاعتبار بل والاتباع حيث إنه قائم على التأصيل ولذلك كان يكتفي في سبب النزول بموضع الشاهد فقط وإذا ورد في الآية أكثر من سبب حاول الجمع بينها، وأحيانا كان يغفل سبب النزول.

ـ ١٤ ـ

وللأستاذ الجبالي ، في مجلة الأزهر أيضا ، شروح متصلة للحديث النبوي الشريف، مست إليها الحاجة الاجتماعية.

و على صعيد مواز كان للشيخ إبراهيم الجبالي أسلوب متميز في تدريس النصوص الأدبية، وفي توجيه المدرسين في التعليم العام والأزهري، وأساتذة الجامعة الأزهرية.

....

وعلى صعيد رابع كان الشيخ الجبالي أحد العلماء البارزين الذين أسهموا في كتاباتهم بنصيب وافر في نشر الثقافة الإسلامية وخدمة الدين .

....

ـ ١٥ ـ

عرف الشيخ الجبالي باتزانه الخلقي وتضلعه العلمي ، وقد اتضح هذان الخلقان فيما كان يعرضه من الآراء المتقابلة، إذ كان يوفي كل وجهة نظر حقها من الاستدلال والترجيح توفية تامة، وإن لم يمل إليها، فقد كان نموذجا للأمانة العلمية الحقيقية ، وكان يعرض الرأي المخالف دون اقتضاب، تاركا للقارئ حرية الاختيار.

وعلى سبيل المثال فإنه حين أثيرت قضايا التوسل والاستغاثة، وعُرف لكل منحى رجاله من الفقهاء المتحمسين، كتب في هذا المجال كتابة مَنْ يرى وجهات النظر تتسع لكلا الرأيين، وأن أوجه الخلاف أقل من أن تثير هذه الحرب الكلامية فيصبح القتال في غير معترك حقيقي.

ـ ١٦ ـ

قام الشيخ الجبالي بثلاث رحلات مهمة كان فيها سفيرا لمصر وللأزهر وللإسلام ،

ولم يحقق غيره مثل هذا النجاح :

سافر إلى بلاد الحجاز عام ١٣٥٠هـ، واجتمع مع كبار العلماء في المسجد الحرام، وعرض عليهم وجهة نظره الداعية لرأب الصدع في الخلافات التي نشبت بين الوهابيين وأهل السنة فيما يتعلق بالمسائل العقيدية والتوسل والقبور ....إلخ ونجح في جهده بفضل ما وصفناه به في هذا الباب من قدرته على الإصلاح من طريق الاستيعاب ، وبالإضافة إلى هذه المهمة فقد قام برحلة الحج المباركة .

ـ ١٧ ـ

أما المهمة الخارجية الثانية فكانت رئاسته لبعثة الأزهر إلى الأقطار الهندية للتعرف على أحوال المسلمين هناك ، وقد بدأها في ١٧ من رمضان ١٣٥٥هـ ، سبتمبر ١٩٣٦ ويمكن لنا تلخيصها مستعينين بتقريره عن هذه الرحلة ، وهو تقرير مسهب نُشر بمجلة الأزهر في مجلدين (١٣٥٦ و ١٣٥٧).

• جاءت الأنباء إلى مشيخة الأزهر الشريف في عهد الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفي المراغي عن رغبة المنبوذين في الهند في اعتناق الإسلام، إذ وجدوه دين الحرية والمساواة والإخاء، وأنه سينقذهم من هذا السقوط الإنساني الذي جعلهم في مرتبة منحدرة عن غيرهم من المواطنين في البلد الواحد.

• درس الشيخ المراغي المسألة من جميع وجوهها، وأخذ يراسل زعماء الإسلام في الهند ـ قبل أن تنشأ دولة باكستان بعشر سنوات ـ كي يعرف الحقيقة بعيدا عن مبالغات الصحف، فجاءته الردود المخلصة من أعلام كبار، في مقدمتهم الشاعر الإسلامي الكبير محمد إقبال، والكاتب المفكر الأستاذ خالد بابا، ثم جاءته رسائل أخرى من كبار الزعماء في العالم الإسلامي من بينها رسالة الزعيم التونسي الشهير الأستاذ عبد العزيز الثعالبي.

• وبعد الدراسة رأى الأزهر أن يرسل بعثة للاستطلاع رأسها الأستاذ إبراهيم

الجبالي مصاحبا زميليه الكبيرين الأستاذ عبد الوهاب النجار والأستاذ محمد أحمد العدوي .

● رحب الزعيم مصطفي النحاس باشا رئيس الوزارة بالفكرة، واستقبل أعضاء البعثة قبل السفر محييا مباركا.

● وقد حققت البعثة الأزهرية نجاحا كبيرا منذ بداية الرحلة ، وأقيمت الاحتفالات تكريما لها في كل بلد ترسو بها الباخرة المتوجهة إلى الهند.

ـ ١٨ ـ

ونأتي إلى جهد الرحلة الأزهرية في الهند نفسها :

● قضت البعثة في الهند حوالي مئة يوم .

● زارت خلالها خمسين مدرسة وجامعة .

● وتحدثت في جلسات خاصة مع ثلاثين من كبار رجالات الهند .

● وألقى أعضاء البعثة اثنتين وثلاثين محاضرة عامة .

● كما أجابوا عددا من الدعوات الخاصة والعامة منها، كانت كلها مجالا لتبادل الرأي خلال التبسيط في الحديث .

● كما زارت البعثة عشرين مكانا تحفل بالآثار الإسلامية، على الرغم من أن زيارة الآثار لم تكن داخلة في المهمة التي أوفدت من أجلها البعثة إلى الهند.

● وقد أدى أعضاء البعثة صلاة الجمعة في المساجد العامة اثنتي عشرة مرة في عشرة مساجد، في عشر مدن كبرى مختلفة، كما حضرت البعثة صلاة العيد مرتين: مرة في بومباي، والأخرى في كلكوتا.

على هذا النحو نجح الجبالي نجاحا منقطع النظير في رحلته إلى الهند رئيسا للبعثة الأزهرية .

ـ ١٩ ـ

أما المهمة الثالثة فتمثلت في اختيار الأزهر للأستاذ إبراهيم الجبالي ١٣٥٨هـ

(١٩٣٩) للسفر إلى بغداد لتمثيل الأزهر في حفل تأبين الملك غازي الأول ملك العراق وقد أقيمت الحفلة التأبينية ببغداد في ذكرى الأربعين للملك .

ـ ٢٠ ـ

ونأتي إلى الفقرات التي لابد منها لاستكمال ملامح السيرة .

كان الشيخ إبراهيم الجبالي شافعي المذهب .

وكان ذا قامة فارعة وجسم مليء وملابس فضفاضة وصوت جهوري ، وعرف بقوة الشخصية والهيمنة على المكان بالعلم والأدب وقوة الذاكرة والارتجال في الكلام ، وحسن اغتنامه للوقت، كرمه ، وحبه الشديد للعلم والعلماء ، والرحمة باليتامى ، و تواضعه العلمي الشديد.

أبرز شيوخه هو الأستاذ الإمام محمد عبده و من أشهر زملائه الإمام الأكبر محمد مصطفى المراغي ومن أشهر تلاميذه الشيخ عبد الحليم محمود والشيخ محمود شلتوت والدكتور محمد رجب البيومي .

ـ ٢١ ـ

وقد توفاه الله تعالى يوم الأحد السادس والعشرين من شهر نوفمبر ١٩٥٠م .

وقد رزق أربعة من الأولاد اثنين واثنتين .

كرمته الدولة في مارس ١٩٨١م فمنحته وسام الجمهورية من الطبقة الأولى .

و نال الدكتور أيمن على محمد تمراز المدرس بقسم التفسير كلية أصول الدين بالمنوفية جامعة الأزهر درجته العلمية برسالة بعنوان «الأستاذ الشيخ إبراهيم الجبالي ومنهجه في التفسير» .

نشرت احدي دور النشر اللبنانية مقالات الشيخ الجبالي في السنوات الأولي من

مجلة الأزهر في مجلد كبير، ولا يضم هذا المجلد مقالات التفسير، بل يشمل ما كتبه خاصا بالتعاليم الإسلامية، وموافقاتها للفطرة .

*****

الباب الرابع

فكرة تغيير المنكر
الشيخ محمود أبو العيون
١٨٨٢م

- ١ -

هو بلا جدال أبرز خطباء ثورة ١٩١٩ المؤثرين، فإذا نسبت الثورة إلى من أشعلها بخطابته فإن محمود أبو العيون هو البطل الأول لثورة ١٩١٩.

وهو أيضا أبرز علماء الأزهر الذين عنوا بواجبهم تجاه الإصلاح الخلقي والاجتماعي، والذين اشتهروا بكتاباتهم وجهودهم في محاربة التهتك والبغاء، ولم يكن يصدر في هذا السلوك عن التزام ديني فحسب، لكنه كان يصدر فيه عن إيمانه بأهمية أن يقوم عالم الدين بدور المصلح الاجتماعي، وأن يتوجه بجهاده إلى ميادين السياسة، والاجتماع، والأدب، والخلق.

ومن الإنصاف أن نبدأ فنذكر أن أكبر الفضل في تسجيل تاريخ هذا العلم الجليل يعود إلى الدكتور رجب البيومي بذاكرته وفهمه ومكتبته وإنصافه.

كذلك فإن الحظ الأوفى في ذيوع فضله وفكره في جيله يرجع في المقام الأول إلى الأستاذ داود بركات رئيس تحرير جريدة الأهرام الذي أيد الأستاذ أبا العيون في دعواته تأييدًا منقطع النظير، ففتح له أبواب الجريدة الذائعة ليكتب وينشر كل ما شاء.

كذلك ينبغي لنا الإشارة إلى فضل الأستاذين محمود تيمور وأحمد عباس صالح في تصوير ملامح شخصية الشيخ أبي العيون في كتابيهما «ملامح وغضون» و«عمر في العاصفة».

كان الأستاذ محمود تيمور أبرز الأدباء الكبار التفاتا إلى تقدير الأستاذ أبو العيون، وكان واعيًا لدوره كمصلح عامل غمط حقه بين معاصريه، وقد كتب الأستاذ محمود تيمور فصلًا تحليليًا رائعًا عن أبي العيون في كتابه «ملامح وغضون»

ورسم معالم شخصيته الرائعة، وكما يقول الدكتور البيومي فقد استطاعت ريشة الفنان المصور لدى تيمور أن تبرز صورة الرجل الخالد، في ملامحه القوية، وقسماته الباهرة، إبرازًا دل على مهارة واقتدار.

-٢-

كان الشيخ محمود أبو العيون في جيله علما خفاقا معروفا علي نطاق واسع وترك آثارا فكرية كثيرة، كما ترك كتبا منشورة لكنها لا تزال أقل بكثير من إنتاجه الضخم الذي ملأ الصحافة،أومن المؤكد أنه سيأتي يوم يهتم فيه بعض الباحثين بجمع بعض مقالاته في الصحف اليومية وتبويبها والتعليق عليها ، فهي نصوص واضحة الدلالة على مذهب خلقي بارز في الإصلاح الاجتماعي. ومن المتوقع أن تكون مقالات أبي العيون في جريدة الأهرام وحدها بضعة مجلدات.

للشيخ كتابان منشوران في التاريخ :

- «تاريخ العرب» مختصر في ذكر الراشدين والعباسيين.
- «موجز تاريخ مصر والإسلام» ، بالمشاركة مع محمد الحسيني رخا.

وله كتابان في الإصلاح الاجتماعي :

- «صفحة ذهبية» رسالة في إلغاء البغاء .
- «مذابح الأعراض» .

ومع أن بعض مناهضي أفكاره كانوا يحاولون السخرية منه ومن أفكاره، فإن ذكره ظل عاليا، وقد حظي بالتقدير الوظيفي والأكاديمي على الرغم من جلبة المعارك التي خاضها، وتولى أعظم المناصب المتاحة لأمثاله. لكنه، رغم كل هذا، نسي نفسه ولم يعن بذاته من حيث هو مؤلف ومبدع، ثم شاء حظه أن يأتي نظام جديد في عهد الثورة يتبني بعض أفكاره لكنه لا يرحب بأن تنسب مثل هذه الأفكار

والتوجهات إلى علماء الدين، ولا إلى أحد سابق علي الثورة، وهكذا عانى في حياته، وضاع حقه في المجد الإعلامي بوفاته المفاجئة.

ـ ٣ ـ

ولد الشيخ محمود أبو العيون في سنة ١٨٨٢ في دشلوط من قرى ديروط محافظة أسيوط، وتلقى تعليمًا دينيا تقليديا على عادة أهل زمانه، والتحق بالأزهر وانتظم في الدراسة فيه، وكان من أنبغ طلابه، وحصل على شهادة العالمية من الأزهر (١٩٠٨)، وعين بعد حصوله على العالمية مدرسًا بالأزهر، ثم مفتشاً، وتنقل بين وظائف الأزهر العليا بما يشهد بتفوقه وقدراته، حيث عين شيخًا لمعهد أسيوط، فشيخا لمعهد الزقازيق، فشيخا لمعهد الإسكندرية، ثم أصبح سكرتيرًا عامًا للأزهر والمعاهد الدينية الإسلامية، فكأنه تولى رئاسة ثلاث من الجامعات الخمس الكبرى بلغة عصرنا كما تولى رئاسة المجلس الأعلى للجامعات .

ولاشك في أن ما نذكره هو من باب التبسيط والتقريب فقد كانت مكانة هذه المؤسسات العلمية في ذلك الوقت أرفع قدرا من المثل الذي ذكرناه .

وظل الشيخ محمود أبو العيون يمارس حياته العامة والعلمية إلى أن توفي ولما يبلغ السبعين.

ويذكر له أنه في إحدى أزمات جماعة الإخوان المسلمين الشديدة مع الدولة، وصف الشيخ أبو العيون وهو سكرتير عام الأزهر دور الجماعة فقال :

«جعل الأخوان المسلمون دارهم مدرسة يعلمون الناس حقيقة الإسلام بعد أن غفل الناس عن حقيقة أنفسهم: «شباب الأخوان يمثلون أبطال الإسلام المغاوير فهم يحملون شارة الإخلاص والتضحية والجهاد والإيمان الحق» .

- ٤ -

نبدأ باستعراض نشاط الشيخ محمود أبي العيون السياسي فنشير إلى أنه بدأه كاتبا في جريدتي «المؤيد» و«اللواء» وهو لايزال طالبا بالأزهر. وهكذا كان من المنتمين إلى مدرستي الشيخ علي يوسف والزعيم مصطفي كامل ولم يكن من مدرسة «الجريدة» و ما تطور عنها من مدارس .

وواصل الشيخ نشاطه بعدما أصبح مدرسا يمارس الوظيفة والعلم والتعليم ، وقد أمدته مدرسة مصطفي كامل السياسية بجذوة مشتعلة من الوطنية الحقة.

ثم أن وقائع تاريخ ثورة ١٩١٩ تشهد أنه كان له هو وأقرانه من زعماء الأزهر الشبان الفضل الحقيقي في اندلاع الثورة ١٩١٩ عقب اصطدام الإنجليز بسعد زغلول، إذ خطب أبو العيون منددا بالاحتلال في جمع حاشد لم يترك مكانا لقدم بالجامع الأزهر، ثم انطلق الثائرون في أول مظاهرة كبري أزعجت الإنجليز، وفوجئ بها سعد زغلول نفسه كما ذكر العقاد في تأريخه ، إذ أن الزعيم الكبير لم يكن يتصور أن تنتفض البلاد انتفاضة رنانة ما بين عشية وضحاها، ولكن خطباء الجامع الأزهر من علماء ومحامين وطلاب ومدرسين قد أعلنوا صرختهم المدوية، فدفعوا بالجمهور إلى مظاهرات عاصفة قادها المشايخ محمود أبو العيون، ومصطفى القاياتي، وعبد ربه مفتاح، وعبد اللطيف دراز.

- ٥ -

وبسبب نشاطه المكثف في ثورة ١٩١٩ تعرض أبو العيون إلى رصاص الاحتلال أكثر من مرة، وحكم البريطانيون عليه بالسجن ، وأودعوه معتقلا على حدود رفح.

وكان للشيخ أبو العيون دور مؤثر في تأجيج ثورة الجماهير في القاهرة ضد الإنجليز عندما شنوا معركتهم الشهيرة ضد جماهير الإسكندرية والتي كانت في حقيقتها مذبحة بشعة ذهب ضحيتها عشرات الأبرياء من الشهداء.

ويذكر له أيضا أنه كان أول خطيب ثائر ندد بالمذبحة الحمراء في صياغات ثورية نارية ، فأجج النار في صدور المصلين يوم الجمعة بحيث خرجت الأفواج في مظاهرة مدوية قاومها الإنجليز بالرصاص فسقط عشرات الشهداء، واعتقل الخطباء مرة ثانية، وعلى رأسهم أبو العيون.

ـ٦ـ

واصل أبو العيون جهاده وهو في ظلام السجن، وأخذ ينشر المقالات الملتهبة في الصحف الوطنية، وحرص السجين البريء على الحث على مقاطعة لجنة ملنر في مقال وقعه بإمضاء محمود أبو العيون السجين رقم ٤ برفح، فكان لتوقيعه مغزى كبير لدى الوطنين والمحتلين معا.

ثم خرج من السجن ليكتب مقالاته السياسية تحت عنوان «الصحيفة السوداء»، وقد بدأها في ٦ من يناير سنة ١٩٢٢م وختمها في ١١ من فبراير من العام نفسه، في سبع عشرة حلقة عن جرائم بريطانيا منذ احتلت مصر، وأفسدت حياتها ، وعملت على تدهور الجيش والخزانة والتعليم والصحة والمستوى الاجتماعي ، و كانت هذه المقالات مؤيدة بالإحصاءات المدعمة بالأرقام ، وكأنه قد أعد نفسه لهذه الحلقات من سنوات.

ولا يزال نشر هذه المجموعة من المقالات في كتاب بهذا العنوان «الصحيفة السوداء» من الأماني التي أرجو الله أن يوفقني إلى قرار بنشرها على نحو ما تم مع آثار مشابهة .

وكان طبيعيا أن يغضب الإنجليز من جرأته الصارخة فحققوا معه فلما لم يجدوا ما يتهمونه به في التحقيق، إذ بهر وكيل النائب العام بصدقه وإخلاصه، اكتفوا بنقله من القاهرة وصدر قرار يحظر على جريدة «الأهرام» أن تنشر مقالات له تحت عنوان «الصحيفة السوداء» .

وظل أبو العيون يدافع بلسانه خطيبا ومتحدثا بعد أن حيل بينه وبين الصحف حتى نجحت الثورة ، وبدأت الحقبة الليبرالية !

ـ ٧ ـ

بدأت الحقبة الليبرالية وسرعان ما أضاف أبو العيون إلى نشاطه السياسي جهدا واسعا في ميادين اجتماعية عريضة ندد فيها بما لمسه من تدهور خلقي ساعد عليه الاحتلال. وهنا نأتي إلى دوره في الإصلاح الاجتماعي.

وكما أنه بدأ نشاطه السياسي بالكتابة فكذلك فعل في نشاطه الإصلاحي الاجتماعي . ذلك أنه كان كاتبا اجتماعيا من الطراز الأول وإن غفل عنه المنصفون من الباحثين، ويبدو، وكأنه هو نفسه ساعد على هذا الإهمال حين ترك آثاره الكثيرة في الصحف دون أن يجمع مختارات منها في كتب يتداولها القراء.

وعلى حد أمنية الدكتور محمد رجب البيومي فإنه ينبغي أن يهتم فكرنا الأكاديمي بدراسة تجليات فكر هذا الرجل على نحو أوسع، وبخاصة «أننا في زمن كثرت فيه الدراسات الأدبية والاجتماعية، ونهض طلبة الدكتوراه والماجستير في كليات الجامعات للحديث عن أصحاب الأقلام من الأدباء والباحثين في رسائل جامعية تعد وتناقش وتمنح عليها الدرجات العلمية، أفلا يقوم طالب من هؤلاء بالبحث عن خصائص أبي العيون في الكتابة، و اتجاهاته الإصلاحية» .

ـ ٨ ـ

كانت معركة الشيخ أبو العيون الأولى في ميدان المجتمع أنه حاول بصادق تدينه و إخلاص وطنيته وحسن نيته أن يقاوم (أو أن ينفي) ما استقرت عليه الدراسات الاجتماعية بعد هذا من أن الثورات قد تستخدم (رغم أنفها وبحكم طبائع الأشياء وديناميةالتحرر) لتعطي غطاء للتفسخ الخلقي ..

وفي هذا الميدان وبهذا المنطق خاض الشيخ محمود أبو العيون معارك كثيرة تكللت بنصره، وأبرزت معدنه النقي الذي لم يحترق بالهجوم الشرس عليه، وأضاف هذا المجد إلى مجد قيادته السياسية لشباب الأزهر في ثورة سنة ١٩١٩، إذ رسم صورة صاحب الفضيلة النموذجي بين الناس حين دعا إلى الخلق الحيّ، والإسلام النقي، والحق الصريح.

ـ ٩ ـ

كان حديث الشيخ محمود أبو العيون عن الأخلاق العامة والفردية حديثا صارما، ولم يكن قادرا على التوفيق بين الروح الوطنية وأي تجاوز خلقي، وقد اضطره هذا إلى أن يعلن أن ثورة ١٩١٩ قد تمخضت من الناحية الاجتماعية عن شرور خلقية مبيدة، لأن بعض الكتاب المتغربين قد خدشوا الكرامة الخلقية بما ترجموا من اعترافات ساقطة، وما وضعوا من مسرحيات جنسية هابطة، ولم يروا غير الإباحية مجالا لإسفافهم الشائن، فتأثر بهم القارئون من الشباب، واندفعوا إلى التخلص من آداب الشرف الكامنة تحت ستار الحرية والتقدم الحضاري.

ـ ١٠ ـ

وفي جريدة «الأهرام» المحفوظة في المكتبات العالمية جواهر مما تضمنته نصوص هذه المقالات، ومن صداها لدى القراء والمعلقين عليها.

نعم فقد أفسحت «الأهرام» صفحاتها للشيخ ونشرت مقالاته الرنانة تحت عنوان «يا ضيعة الأخلاق في عهد الحرية» في عشر مقالات حافلة بالتنديد والتوجيه معا.

وقد كتب الشيخ أبو العيون في إحدى مقالاته:

«... لقد كانت النفوس قبل هذا العهد بعيدة عن الأغراض والأهواء، وكانت

أحكام الدين والأخلاق تدرك وتحترم، ولكن القحط الخلقي أصاب اليوم جماعة الشباب فأوهى فيهم الروابط الاجتماعية، ومكن للرذيلة من نفوسهم، فانغمسوا في حمأتها، وأصبح الكثير منهم يحذق الملق، والكذب والنفاق، ويألف الذلة والهوان، وأصبحت الكفاءات والأهواء بمقدار ما يبذله الشاب لرئيسه من التخضع والمداهنة والرشوة، حتى صرت لا تجد من الشباب المتعلم - إلا قليلا - مَنْ لا تنازعه نفسه إلى فجور، ولا تفتح له عين لريبة، فلا يلحقه في ذلك ذم، ولا تناله وصمة».

«ولقد نظم كثير من أولئك الشباب للمآثم والمشاين دورا ونوادي يختلف إليها الجنسان، وفي ساعة يغفل فيها الزمان تستباح كرامات، وتمتهن أعراض، ومن البلية أن تجد نفوس أولئك الشباب قد مرضت مرضا خلقيا لا أرى علاجه هينا، فهم لا يرون عيبا في اقتراف أي شائنة تكون بعيدا عن العمل الرسمي، لأن تلك في نظر الخاطئ مسائل شخصية، لا تسيء إلى العمل، ولا إلى المجتمع في شيء، وأعجب أن تكون حالهم على ما وصفناه، ثم يؤمنوا في وظائفهم على دانق أو سحتوت، كأن الذمم تتجزأ، والضمائر تتقسم!».

ـ ١١ ـ

أما معركته الثانية فكانت دوره البارز والجوهري والمحوري (بدون أية مبالغة) في محاربة البغاء ، وقد نجح نجاحا ملموسا في إنهاء تورط السلطة في البغاء الرسمي ، وقد استمرت هذه المعركة بضع سنوات .

كان الشيخ محمود أبو العيون يرى، كما يقول الدكتور محمد رجب البيومي، أن محاربة البغاء جهاد لا يقل عن جهاده الثوري، حين تعرض إلى الرصاص من مظاهرات الحرية فشمر العزم لاستئصاله.

وبدأ الشيخ الحملة بنشر مقال بجريدة الأهرام، ثم تابع حملته بجولات يقظة في أحياء البغاء بالعاصمة فعرف الأماكن الموبوءة وأحصى ضحاياها، وأصحاب

المنفعة في إدارتها، واستكتب الأطباء ليتحدثوا عن مآسي البغاء وأمراضه، والاجتماعيين ليعالجوا الوضع بعد الإلغاء.

ثم أصدر الشيخ كتابه الشهير: «مذابح الأعراض» حافلًا بما يسيء ويخجل من فضائح البغاء مشفوعًا بالإحصائيات الدقيقة، والأرقام الكاشفة.

ـ ١٢ ـ

ذكر الأستاذ محمود تيمور أن السبب في محاربته البغاء أنه قرأ في بعض الصحف بعد هدوء ثورة سنة ١٩١٩ عن قس أوروبي قام بمناهضة البغاء في دولته، فانتفض الشيخ انتفاضة صارخة، إذ هاله أن يسبقه قس إلى محاربة منكر لا يعترف به دين، وجمع عزيمته للقيام بدور القس الأوروبي، لكن الدكتور محمد رجب البيومي مع تقديره لتيمور وامتنانه لموقفه من الشيخ أبي العيون، يميل إلى مخالفة القصة التي يرويها الأستاذ تيمور ويقول:

«إن الشيخ أبو العيون منذ نشأته يذكر لائحة سنة ١٨٩٦ التي أباحت البغاء في عهد اللورد كرومر، ويراها سبة شنعاء، وفضيحة يندي لها الجبين، ثم اشتعلت ثورته الغاضبة فتركته كالبركان الملتهب حين قرأ بعض ما ذكرته اللجنة الدولية التابعة لعصبة الأمم المتحدة في تقريرها الخاص بتجارة الرقيق، وقد جاء فيه:

«وقد أصبحت مصر ميدانًا محبوبًا ومركزًا هامًا من المراكز الدولية التي يفد إليها حماة البغايا، يجلبوهن من سائر الأقطار، ويمكثن في مصر ريثما يؤهلن، ثم تبقي مَنْ تمارس البغاء إذا رضيت بالإقامة في مصر، وإذا زاد العدد ذهبت البقية إلى مختلف الجهات».

ـ ١٣ ـ

ويلفت الدكتور البيومي نظرنا إلى ما يعرفه هو من أن الأستاذ داود بركات نفسه كان ممن شغلوا أنفسهم كثيرًا بمحاربة هذا الداء قبل صيحة أبي العيون، إلى حد أنه

ترجم (١٩١٣) كتابًا خاصًا بذلك نقله عن طبيب إنجليزي كبير.

وقد عمل الأستاذ داود بركات على تأييد الشيخ أبى العيون بمقالات واعية ذات حجج عقلية لا يتطرق إليها التوهين، كما كتب داود بركات مقدمة جميلة لكتاب الشيخ أبى العيون «صفحة ذهبية» سفه فيها دعاوي المنحازين ضد الشيخ أبى العيون.

- ١٤ -

ومن المفارقات التي لابد من ذكرها أن الأستاذ أبا العيون كان يتصور في بادئ الأمر أن دعوته لن تجد معارضًا من الناس، على اعتبار أنها دعوة الحق والإنسانية والكرامة، لكنه فوجئ بأكثر الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية تشن عليه حملة ظالمة، تتهمه بالادعاء والنفاق وحب الظهور، بل توقحت بعض المجلات الساقطة فرسمت لأبي العيون صورًا كاريكاتورية مع بعض البغايا في مواقف خليعة دون أن يعصمها خلق أو حياء.

ويذكر الدكتور البيومي أن جريدة «السياسة» كانت توالي حملاتها الظالمة على الرجل فتقول فيما قالت: «الشيخ أبو العيون يعرف قبل غيره أن ضجته الكبيرة غير نزيهة، وأن ليس من حكومة رشيدة تأخذ بما يدعو إليه من رفع الرقابة الصحية عن فئة تعسة من الناس، رمي بها الشقاء إلى بؤرة البغاء، وهو يعلم أنه لا يقصد إلا الدعاية لنفسه والإعلان عنها».

«أما الغيرة على الدين والبكاء على الفضيلة فكلمات جوفاء لم يقصد بها الشيخ لأكثر من خداع الجمهور، وجره وراءه مصفقاً، أما الدعوة إلى إلغاء البغاء الرسمي مع انتشار البغاء غير الرسمي فلا معنى لها، إن مهمته أن يقول: إن البغاء حرام، وقد قالها، أما أن يلبس ثوب الطبيب فتطفل من الشيخ غير معقول، وإن ما بُني في أجيال لا يمكن هدمه في يوم، وليس أبو العيون بمن يستطيع أن يجد العلاج، فهو أصغر

من ذلك جدا، ومن الإجرام أن يتخذ الرجل اسم الدين لإثارة موضوع خطر!!

ـ ١٥ ـ

ويلفت الدكتور رجب البيومي نظرنا إلى ما يدل على تصوير نفسية أبي العيون في قول الشيخ العظيم تعقيبا على هذا التوجه :

«استر وجهك يا صاح فحسبك من شر سماعه، فلعمري لا يسمع ذلك القول كريم إلا استغشى ثوبه، وغطى وجهه، وتمني لو انفرجت الأرض تحت قدميه فابتلعته، أو مادت به فأهلكته، وارحمتاه، لقد فقدنا كثيرًا من معاني الحياة أحوج ما نكون إليها في مركزنا المضطرب، والتي لا غنى لأمة ناهضة عنها، فقدنا استقلالنا السياسي، أو هو على الأكثر في الميزان فقدنا استقلالنا الاقتصادي، فقدنا استقلالنا الخلقي، وحتى الشرف .... !! فماذا بقي لنا؟».

ـ ١٦ ـ

ويسجل الدكتور البيومي أن الأستاذ العقاد قد تورط في مهاجمة الشيخ أبي العيون في مقال له في «البلاغ» وأن مجلة «روز اليوسف» كانت تنتقد أبا العيون بأسلوب ساقط مختل، وأن الأستاذ سلامة موسى كان يهاجم الإلغاء بتمحلات زائفة! وكان كل ما قيل يدور في فلك جريدة «السياسة»، ويمط في عبارتها، إذ هي صاحب المعول الكبير. لكن الشيخ محمود أبو العيون لم يسكت عن مناوئيه، وإنما جادلهم بالتي هي أحسن.

وقال الشيخ أبو العيون لمن يزعمون أنه افتات على حقوق الأطباء والمشرعين في موضوع هم أولى الناس بالحديث عنه: إنه رجع في مقالاته إلى آراء الأطباء الموثوق بهم، والإداريين والمتشرعين، فلم ينفرد في ذلك برأي، ثم إن المسألة تتصل بالدين، فما يجوز للأستاذ فكري أباظة، مثلا، أن يقول: إن إلغاء البغاء جريمة، وأن يدفع دفعا فرعيا قانونيا بعدم اختصاص أبي العيون، لأنه عالم دين ومن صميم عمله أن

يحارب ما نهى الله عنه، وإن النظر إلى الأمر الواقع باعتباره مسألة لا غنى عنها مسألة تمنع كل إصلاح، وتعيد قول الذين قال عنهم القرآن الكريم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣].

ـ ١٧ ـ

واجه الشيخ أبو العيون هؤلاء جميعا بصيحته الرائعة التي افتتح بها كتابه «صفحة ذهبية» (١٩٢٨) فقال عن نفسه:

«يمينا لا تقبض تلك اليد بعد أن بسطناها ولو صافحتها السيوف البواتر، لقد التزمنا أن ندافع عن أعراض هذه الأمة المسكينة، وأن نذود عن عفافها زيادا حقا، مستهدفين في ذلك لكل خطر حتى جدع الأنف، ودق العنق».

«لقد صرخنا في صحيفة «الأهرام» صرخة مدوية لباها أهل الحق، فنهدوا إلى قلب الباطل نهدة صادقة كان لها الأثر الظاهر، إذ تسابقت مجالس المديريات في هدم دور الدعارة، وإلغاء مواخير الفسق، ولولا أن وقفت إدارة الأمن العام حجر عثرة في طريق الحق لما بقي لتلك البؤر عين ولا أثر، وسيستمع ذلك الصوت الصارخ رجال مصر في برلمانها، وسيكون الفصل في المسألة على أيديهم».

ـ ١٨ ـ

ويسجل التاريخ الاجتماعي لمصر أن الرأي العام والحكمة قد انتصرا لآراء الشيخ أبو العيون ضد كل ما نادى به بعض زعماء الفكر في الوطن، وصحفهم اليومية الذائعة، فقد كان الشيخ كفيلا بصد تيارهم الزاحف، إذ استنهض أنصار الفضيلة من أمراء ووزراء وعلماء ليقفوا معه، وبدأ المسعى بالاتصال برئيس الوزراء وأعضاء وزارته مسجلا كل ما يقولونه، فناشرا إياه على صفحات «الأهرام»، وكان ذا أسلوب مقنع في النقاش.

ومن الإنصاف أن نذكر مواقف بعض الرسميين الذين واجهوا دعوة الشيخ بايجابية وجدية ، ونتقل مثالا على ذلك من حديث لرئيس الوزراء إذ ذاك عدلي يكن باشا وهو قوله:

«الدعارة نظمت لأمرين:

١ ـ مراقبة المريضات بالكشف، وعزلهن عن الاختلاط.

٢ ـ حصر دائرة الفسق في نطاق خاص».

وقال الشيخ أبو العيون :

«وقد ظهر بالاستقصاء أن الكشف لم يؤد إلى نتيجة مرغوبة، بل بالعكس كان ناشراً للأمراض السرية، وكذلك لم يحصر الفسق في دائرة، فإن الدوائر الرسمية في العاصمة مثلا هي: عرب المحمدي، والوسعة، وسيدي زينهم، وهناك دوائر يضيق عنها الحصر كالذهبيات، والعوامات، والأكشاك على شواطئ النيل، والجارسنيرات، والبانسيونات، ومحال التدليك، والخياطة، والبيوت السرية «الجهرية» ، وهي ذائعة في كل شارع ومضيق» .

«فلم يسع رئيس الوزراء إلا أن وافق وحبذ» .

ـ ١٩ ـ

وقد كان القطب الوفدي فتح الله بركات باشا من الذين أيدوا الشيخ أبا العيون بعد اقتناع :

«قال له فتح الله بركات باشا وزير الزراعة: «علينا أن نبحث هل هناك قوانين تقف أمام الإلغاء ونحتاج إلى تذليلها، أو أن هناك عوامل سياسية تمنع تنفيذ هذه الرغبة الشريفة فنأخذ في معالجتها.

فرد أبو العيون سريعا بقوله: «إن لائحة العاهرات صدرت بقرار من وزارة الداخلية، فهي ليست بقانون، بل بقرار، ولا يحتاج إلغاؤها إلا لقرار وزاري مثله»،

فوافق فتح الله باشا وقال: «سأعد نفسي سعيدا موفقا إذا كنت من العاملين على إزالة هذا المنكر الفظيع».

ـ ٢٠ ـ

وفي مقابل هؤلاء كانت بين النخبة التنفيذية ثلة تقاوم الإصلاح وتتبنى موقفا كالذي اتخذته نخبة المثقفين على نحو ما لخصناه في فقرة سابقة :

«وقد حاول نجيب الهلالي بك في حضور وزير المعارف علي الشمسي باشا أن يعترض أبا العيون بقوله: «إن الزنى ليس بتشريع عندنا، لكن الحكومة تنظمه فقط».

فقال الشيخ: «إن الحكومة تحميه وتشجع الناس على ارتكاب الفاحشة، وتسمح للغلمان بغشيان المواخير والمفاسق، فيكون مصيرهم مصير الباغيات، وعندي إحصائية رقمية بذلك، وأخجل من التصريح بأكثر مما ذكرت».

وقد أورد الشيخ في إحدى محاوراته رأي زعيم خطير قال فيه: «وقد رأينا بعض الكتاب يسألون: ماذا تكون حالة هؤلاء النسوة بعد غلق مواخيرهن؟ وهذا سؤال بعينه يصح أن يقال عن كل فرق ترتزق من السبل المحرمة، إذا ما أغلقت في وجوههم هذه السبل: كالمتجرين في المواد المخدرة وغيرهم، وبعضهم يخاف من انتشار الأمراض السرية إذا حرم البغاء الرسمي، ورفعت الرقابة الطبية، وهذا منطق معكوس، فإن الإباحة أشد نشرا لهذه الأمراض من التحريم، وهذا هو المشاهد الملموس، وواجب الحكومة يقضي بمنع المحرمات والأمراض الاجتماعية الناشئة عن منها، لا أن تبيحها، ثم تزعم أنها تقاوم ما ينشأ عنها من أخطار».

....

ـ ٢١ ـ

كان الأستاذ أبو العيون من الذكاء بحيث تنازل عن بعض مجده فيما كان يطالب به ويدعو إليه، وكان يقول في الرد على هجوم بعض معترضيه: «إنه لا يستقل (أي لا ينفرد) بمشروع خاص في محاربة البغاء، بل يكل الأمر إلى لجنة ذات كفاءات متنوعة تشمل القانون والطب والاجتماع والسياسة».

ـ ٢٢ ـ

وكان الشيخ أبو العيون يصرح جريئا بأن بوليس الآداب الذي يتذرعون بكفايته (!!) قد أصبح مروجا للفساد بدلا من أن يكون مانعا له، وقد استعصى على الطب أن يستأصل غوائل البغاء، فلم يبق غير استئصال الأساس !

وبعد أن طالت المعركة بين الشيخ وخصومه، انتهت أخيرا بانتصار رأيه، إذ أعلنت الحكومة فيما بعد إلغاء البغاء نهائيا من البلاد، ولم تصادف من العقبات ما توهمه المعارضون، ووضح بجلاء أن أبا العيون لم يكن أصغر من الموضع الذي تعرض له.

ـ ٢٣ ـ

ونأتي إلى الانجاز الثالث الذي يذكره التاريخ ويثبته للشيخ محمود أبو العيون في مجال الإصلاح الاجتماعي ، وهو أنه هو الذي تمكن من إنفاذ تدريس التعليم الديني بالمدارس المدنية دون إبطاء.

وقد بدأ سعيه في هذا السبيل عندما كتب أحد الشباب المعارض لمحاربته للبغاء يقول: «ماذا يصنع المراهقون إذا ألغي البغاء الرسمي وهم ما بين سن الرابعة عشرة والثلاثين، ولا تسمح ظروفهم الاقتصادية بالزواج العاجل، وهم عاجزون عن النفقة على أنفسهم، فكيف بزوجاتهم ومَنْ يجد من أولادهم؟».

وقد عمل أبو العيون على إقناع المسؤولين من وزراء المعارف ووكلائهم بوجوب تدريس الدين الإسلامي في المدارس المصرية على جميع المستويات. وقد هوجمت دعوة أبى العيون على نطاق واسع، لكن الكثرة العاقلة من الشعب والمثقفين على حد سواء، من ذوي النزاهة تبنتها وأيدتها ، وكذلك فعل أولياء الأمور.

ـ ٢٤ ـ

وكانت أقوى حجة يتذرع بها معارضو أبى العيون هي أن تلاميذ المدارس المدنية يكونون عناصر دينية مختلفة، فتقرير الدين في امتحانهم ينافي وحدة الامتحان، ويسيء إلى نظم الدرجات، ويدعو إلى تغيير نظام الامتحان تغييرا لا يتفق ومصلحة التعليم!.

وقد قال أبو العيون يفند حجة القائلين بهذا الكلام: «أما إنه ينافي وحدة الامتحان فصحيح، لكن هذه الوحدة لم تكن نظاما جوهريا في امتحانات الوزارة، لأنها لا تراعى في القسم الثاني من التعليم الثانوي (إذ ذاك) بشطريه: العلمي والأدبي، مع أن شهادتها واحدة، وقد تؤهلها لدخول كلية واحدة».

«وأما أنه يسيء إلى نظام الدرجات فمن الممكن تجنب هذه الإساءة بألا تحسب درجات التعليم الديني ضمن درجات الترتيب في حالة نجاح التلميذ، على أن يعتبر راسبا إذا نقص عن النهاية الصغرى المحددة لمادة التعليم الديني، كما يمكن أن نجعل مادة الدين ومادة الأخلاق مادتين اختياريتين يدرسان معا للطلبة، كل منهما في حصص مستقلة، وعند الامتحان يلزم الطالب المسلم بالإجابة عن أسئلة الدين، ويخير غير المسلم بين الإجابة على أسئلة الدين والإجابة على أسئلة الأخلاق، وتحسب درجات كل منهما في النجاح والترتيب أسوة بالمواد الأخرى، وهذا النظام الذي نؤثره على غيره ليس غريبا في نظم الوزارة، إذ عمل به في مادتي التاريخ والجغرافيا، إذ يكتفي التلميذ بالمدارس الابتدائية (إذ ذاك) على الإجابة عن إحداهما..».

ـ ٢٥ ـ

وقد انتهت وزارة المعارف بعد مداولات طويلة شارك فيها الأستاذ أبو العيون على مدى عدة سنوات إلى الأخذ باقتراحه الأول مع بعض التعديل، وكان ذلك نصرًا أدبيا عظيمًا له في سجل الإصلاح الاجتماعي والتربوي فضلا عن سجل محبي الدين والأخلاق.

ـ ٢٦ ـ

وترتبط بالمعركة السابقة معركة خاضها الشيخ أبو العيون حين أنشئ معهد التمثيل في عهد وزارة إسماعيل صدقي الأولى، وفرض الرقص التوقيعي بين برامجه، فاعترض أبو العيون بشجاعة على مراد سيد أحمد وزير المعارف إذ ذاك، واتخذ من «الأهرام» منبرا لتأييد نظرته حتى ضج خصومه، واقترح بعضهم إحالته إلى مجلس تأديب، و هاج الرأي العام على الوزير.

ثم جاء محمد حلمي عيسى باشا وزيرا للمعارف فاستجاب لأبي العيون عن اقتناع، وقاد الدكتور طه حسين حملة تنديد بالوزير وسخرية منه تحت اسم وزير التقاليد.

وظلت المعركة دائرة حول الرقص التوقيعي حتى استجاب بعض المتسرعين إلى إعادته، فواصل أبو العيون هجومه، وآزره أحمد مرسي بدر حين كان وزيرا المعارف (١٩٤٩) و قرر إلغاء تدريسه.

ـ ٢٧ ـ

نأتي إلى المعركة الخامسة من معارك أبو العيون في ميدان الإصلاح الاجتماعي، وربما أنها هي أشهر معارك أبو العيون وقد خاضها حين كان شيخا لعلماء الإسكندرية وهي ما عرف بدعوته إلى تنظيم الشواطئ ومنع التبرج السافر،

والاختلاط الفاضح، وقد تكالبت عليه الكثرة المفتونة بشهواتها، فملأت الصحف تشهيرا بالرجل، وتوالت الصحف الهازلة ترسم صورته بطريقة كاريكاتيرية، فزعموا أنه يدعو إلى إلغاء المصايف المصرية خدمة للمصايف الأوروبية وفق اتفاق سري عقده الشيخ مع دعاة الانحلال!. وقد صور على أنه يحارب المصايف المصرية، ويدعو إلى إبادتها كما أرجف عليه سفهاء الصحف المبتذلة، وقد لخص دعوته الهادفة في اقتراحات موجزة رفعها إلى نفرٍ من المسئولين، ودعا إليها بالأهرام، حيث أوجزها في هذه النقاط التي ننقلها من مجلة «الأزهر» (١٣٥٨ هـ) :

• تخصيص حمامات للسيدات مجانا في المناطق القريبة كالشاطبي والإبراهيمية وجليم.

• أو تخصيص زمن للسيدات صباحا كما هو متبع في بعض المصايف الأخرى، مع وضع رقابة على هذه الحمامات لوقايتها من عبث الشبان بواسطة البوليس، فتوجد فرص للأسر الحريصة على صيانة كرامتها، وشرف آدابها من اختلاط الجنسين، وعبث المستهترين.

• إيجاد نقطة دائمة من البوليس في كل بلاجات الثغر بشرط أن تكون النقطة ثابتة لا تنتقل من مكانها، ويكفي في كل بلاج كونستابل وجندیان لمعاونته.

• تعديل لائحة الآداب الخاصة بالشواطئ بما يمنع أي منظر مخالف للآداب العامة، سواء في الماء أو على الشاطئ، ويترك هذا لتقدير رجل البوليس الذي يختار من ذوي السيرة الشريفة، والسمعة الحسنة.

• ينص في اللائحة على أن يخول للبوليس سلطة إزالة أي كابينة استحمام أهلية تحدث فيها مخالفة للآداب، ويكون ذلك عقب إنذار يوجه إلى ساكن الكابينة، كما تكون الإزالة على نفقة صاحبها.

• تقفل الشواطئ جميعها، وتخلي من جميع ساكنيها وقت الغروب مباشرة.

• يؤلف بوليس نسائي لحماية هذه المقترحات مع التعاون بين بوليسي آداب المدينة والبلدية!

ـ ٢٨ ـ

أما معركته السادسة التي نكتفى بالإشارة إليها باختصار فهي تتعلق بما عرف عن دأبه في محاربة الحفلات التي كانت تقيمها الأمير شويكار ويحضر الملك فاروق بعضها، وقد كتب في هذا الميدان مقالات شهيرة جريئة وصلت إلى أقصى حدود الهجوم، وكانت سببا من أقوى الأسباب في انصراف الجماهير عن الملك والملكية.

ـ ٢٩ ـ

توفي الشيخ محمود أبو العيون في عام ١٩٥١.

*****

الباب الخامس

فكرة التقريب
الشيخ محمود شلتوت
١٨٩٣م

ـ ١ ـ

هو أول من لقب بالإمام الأكبر. بعد أن صدر قانون التطوير(١٩٦١م) ونص على هذا ، وكان قد عين شيخًا للأزهر (١٩٥٨م) ، وهو شيخ الأزهر الوحيد الذي توفي وهو في منصبه بين من تولوا المنصب في عهد الثورة الأول ورئاسة الرئيس عبد الناصر ، فقد استقال سلفاه عبد المجيد سليم ومحمد الخضر حسين وأبعد عبد الرحمن تاج بأن عين وزيرا اتحاديا وأقيل خلفه حسن مأمون.

وهو واحد من أبرز علماء الدين الإسلامي والمعارف المتصلة به في القرن العشرين، جمع التفوق والألمعية والحضور والدأب والنفوذ، وعرف على أنه فقيه واسع الأفق، ومفسر واسع الاطلاع. حارب الجمود والعصبية المذهبية إلى حد أن وصفها (محذرا) بأنها جعلت المذاهب الإسلامية أقرب إلى أن تكون أديانا، كما حارب فكرة سد باب الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، واعتبرها حبسا للعقول، وتعطيلا لكتاب الله، ومجافاة لنصوصه الداعية إلى البحث والنظر.

وكانت له آراء إصلاحية نادى بها منذ شبابه الباكر في نهاية الربع الأول من القرن العشرين، وظل متمسكا بها حتى لقي ربه.

ـ ٢ ـ

إذا جاز أن لكل عالم من أعلام الأزهر وشيوخه الإمامة في ميدان من الميادين، متفوقا به على غيره، فقد تميز الشيخ بأنه إمام التقريب.

ذلك يُذكر له عندما كان شيخًا للأزهر أنه أصدر فتواه بجواز التعبد على المذهب الفقهي للشيعة الإمامية، وهو المذهب الجعفري، كسائر مذاهب أهل السنّة، وقال في هذا المعنى:

«ينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب

معينة، فما كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب، أو مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى، يجوز لمن ليس أهلا للنظر والاجتهاد تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات».

ومن المعروف أنه في عهد الشيخ شلتوت تم إصدار الموسوعة الفقهية معتمدة المذاهب الفقهية الإسلامية الثمانية: الحنفي، والشافعي، والمالكي، والحنبلي، والجعفري، والزيدي، والإباضي، والظاهري.

ـ ٣ ـ

لمع اسم الشيخ شلتوت في مجال الفتوى والعلوم الإسلامية منذ مرحلة مبكرة، وظل محتفظا باللمعان حتى وفاته فجأة وهو شيخ للأزهر، وكان حين توفي ألمع علماء عصره بلا جدال، ويذكر له أنه لم يغفل قضية فقهية من قضايا عصره دون أن يصدر رأيه فيها، فكان مصدر الفتوى في كثير من شؤون الفقه ومسائله، وكان في شبابه يضع نفسه بعلمه في صف أساتذته الكبار، حتى زاملهم مزاملة الكفء للكفء.

وقد نال من التقدير العلمي المبكر ما توازى مع كفايته وشهرته بعد ذلك.

وقد مارس شلتوت الإمامة الحقيقية للمسلمين في أثناء قيامه على أمر الأزهر وكيلا وشيخا ، وكان من مظاهر هذا أنه رحل إلى مختلف البلاد الإسلامية زائرا وداعيا إلى الائتلاف، فلمس من أحوال المسلمين ما دعاه إلى العمل على التأكيد على تقرير تدريس اللغات الأجنبية بالأزهر، ليبعث من طلابه مَنْ يصلحون لمخاطبة المسلمين في كل مكان، ومن البلاد التي زارها: إندونيسيا، والملايو، والفلبين، وهونج كونج.

ـ ٤ ـ

ولد الشيخ محمود شلتوت بمنية بني منصور مركز إيتاي البارود بمحافظة البحيرة (١٨٩٣م)، وحفظ القرآن الكريم ثم التحق بمعهد الإسكندرية الديني (١٩٠٦م)، وكان معهد الإسكندرية في ذلك الوقت قد تطور وارتقى بحيث أصبح (من الناحية الإدارية والتعليمية والجامعية) بمثابة جامعة أزهرية موازية للأزهر في القاهرة، بادئا أول تجربة حقيقية في الجامعات الإقليمية في مصر ، وهي التجربة التي أدعو الله سبحانه وتعالى أن يمد في عمري حتى أكمل دراستي عنها و أنشرها إن شاء الله ، وفي هذا المعهد شهد شلتوت عهد الشيخ محمد شاكر شيخ علماء الإسكندرية بكل ما تميز به هذا العهد الزاهر، وكان في جميع سنواته أول الناجحين، ونال شلتوت الشهادة العالمية النظامية (١٩١٨م) وهو في الخامسة والعشرين من عمره .

وفي العالمية كان أول الناجحين كما كان من قبل أيضا.

عين الشيخ شلتوت مدرسا بمعهد الإسكندرية الديني في العام التالي مباشرة لتخرجه (١٩١٩م).

ـ ٥ ـ

لما قامت ثورة ١٩١٩ بدأ نشاط الشيخ شلتوت الوطني في الظهور ، وشارك في الثورة بإخلاص وحماسة، كما شارك في جمع التبرعات لأسر المعتقلين، وكانت الإسكندرية يومئذ بمثابة موطن اعتقال للقاهريين، كما كانت القاهرة محلا لاعتقال أبناء الأقاليم.

تابع الشيخ شلتوت نشاطه العلمي في الإسكندرية وبدأ يعرف طريقه إلى المجتمع و الصحافة، وامتدّ نشاطه العلمي إلى كل ما يتصل بعلوم الدين من فقه وتفسير وحديث.

ـ ٦ ـ

ولما عين الشيخ المراغي شيخا للأزهر للمرة الأولى (١٩٢٨م) أحس الشيخ شلتوت بأن العصر عصره ،وأن المنهج منهجه، فعمل بكل ما يملك على استيعاب فكر الشيخ المراغي والدعوة له .

وأهله حضوره ونشاطه لأن ينقل في عهد مشيخة الشيخ المراغي للأزهر مدِّرسا في القسم العالي بالقاهرة، حيث تولى تدريس الفقه الإسلامي في أقسام التخصص التي أنشئت في ذلك الوقت، أي أنه كان في ذلك العصر المتفتح يشغل وهو لايزال في شبابه ما يُسمى في الجامعات الكبرى بوظيفة أستاذ الدراسات العليا.

وقد اختاره الشيخ المراغي لتدريس أصول الفقه في القسم العالي بالأزهر، على الرغم من أن تدريس الأصول كان وقفا على العلماء الكبار القدامى، وكان شلتوت جديرا بما أسند إليه، وكان من تلاميذه بالقسم العالي كثيرون انبهروا بعلمه الراسخ، وشجاعته الفكرية، وقد كان من تلاميذه في هذه الفترة الشيخ عبد الحليم محمود.

ـ ٧ ـ

عمل الشيخ شلتوت منذ عهد المراغي الأول (١٩٢٨-١٩٢٩) كما ذكرنا أستاذا في قسم التخصص مدرسا للفقه الإسلامي، ولم تكن هذه هي كل علاقاته بالمراغي وفكره، فقد عكف على دراسة آراء المراغي في المذكرة التفصيلية الخاصة بقانون الأحوال الشخصية وشؤون الأسرة، وهي المذكرة التي تضمنت من الآراء الفقهية ما لم يقف عند حدود المذاهب الأربعة، بل تعدت هذا الأفق إلى شتى الآراء في المذاهب المختلفة لكبار الفقهاء في الإسلام.

وقد أثرت هذه المشاركة في فكره الفقهي تأثيرا واسع المدى وجعلته أقرب إلى التسامح المذهبي، ومنذ ذلك الحين أخذ شلتوت يكتب في الفقه الإسلامي بروح

مختلفة عن الشائع، فلم يتقيد بالفقه الحنفي الذي درسه في الأزهر، واتخذه مذهبا له على حسب نظام التعليم الأزهري ، ولم يقتصر على المذاهب الثلاثة الأخرى، بل جعل كل رأي إسلامي موضع النظر.

وهكذا درس شلتوت فقه زيد بن علي، وجعفر الصادق، وابن حزم، وابن تيمية، وتلميذه ابن القيم.

وهكذا فإنه على الرغم من أنه لم يكن من تلاميذ المراغي المباشرين، فإنه بدا امتدادا ذكيا له كما بدا علما واعدًا في ميدان تطور وتطوير التشريع.

ـ ٨ ـ

وهكذا ومنذ مرحلة مبكرة استقرت في الوجدان الأزهري والثقافي (وفي الذاكرة الصحفية والشعبية كذلك) صورة الشيخ شلتوت على أنه من مؤيدي أفكار الشيخ المراغي ومنهجه في إصلاح الأزهر.

ولم يكن هذا من فراغ فقد كان الشيخ شلتوت قد أيد المراغي بعدة مقالات نشرت في جريدة «السياسة» اليومية.

وعندما استقال الشيخ المراغي بعد المعارضة القوية لحركته الإصلاحية، فقد كان من الطبيعي أن يغضب شلتوت كل الغضب لإبعاد المراغي عن مشيخة الأزهر ، وأن يزداد غضبه حين يرى النظرة إلى الفقه الإسلامي لا تزال في حيزها الضيق، وهذا ما دعاه إلى الكتابة عن ضرورة الالتزام بما نودى به من قبل، وإلى أن يقود حملة صادقة تطالب بتطوير تدريس الفقه .

وكان من الطبيعي أن يضيق به الأستاذ الأكبر محمد الأحمدي الظواهري.

وتصاعدت الأمور حتى فصل الشيخ شلتوت من منصبه في عهد الشيخ الظواهري، فعمل بالمحاماة أمام المحاكم الشرعية، وسرعان ما حقق ذاته في ممارسة

المحاماة الشرعية، فضلا عما أتيح له من أن يدرس أحوال الأسرة دراسة ميدانية، حيث ألم بتفصيلات مسائل الزواج والطلاق والميراث والنفقة على طبيعتها الحية بين المتخاصمين، وراجع ما كتبه الفقهاء مراجعة مَنْ ينشد استقرار الأسرة الإسلامية في ضوء التشريع الصحيح.

ـ ٩ ـ

ولما انتهت فترة الشيخ الظواهري (١٩٢٩ ـ ١٩٣٥) وعاد المراغي إلى المشيخة عاد شلتوت إلى العمل مدرسا بكلية الشريعة (فبراير ١٩٣٥م)، فاختار لنفسه أن يدرس مادة جديدة لم تكن مقررة من قبل، هي مادة الفقه المقارن، وفي ذلك الوقت المبكر كان ميدان بحوثه هو المقارنة على المذاهب الأربعة وحدها، و كان أول مَنْ بدأ تدريس الفقه المقارن في الأزهر، وقد أصدر مع الأستاذ محمد على السايس كتابا في الفقه المقارن.

وقد ارتقى الشيخ شتوت في الوظائف حتى عين وكيلا لكلية الشريعة، ثم مفتشا بالمعاهد الدينية.

ـ ١٠ ـ

كان الشيخ شلتوت، من قبل هذا في طليعة المنادين بالتجديد والإصلاح في الأزهر، ويعده مؤرخو هذه الحقبة ومعاصروها من ألمع الناشئين في مدرسة الشيخ محمد عبده، وذلك على الرغم من أنه لم يلتحق بالأزهر إلا بعد وفاة الأستاذ الإمام بعام، لكنه اتصل اتصالا مباشرًا باثنين من أنجب تلاميذ الإمام محمد عبده هما الشيخ والمفتي : شيخ الأزهر: المراغى، والمفتي: الشيخ عبد المجيد سليم .

و يعد شلتوت في نظر الكثيرين من أبناء الأزهر بمثابة حامل راية الإصلاح والتجديد من بعدهما.

طالب الشيخ شلتوت منذ مرحلة مبكرة بأن يعاد النظر في مناهج الأزهر وكتبه حتى تعبر تلك الكتب والمناهج عن النهضة الحديثة .

ـ ١١ ـ

وقد ظل الشيخ شلتوت على ما عهد فيه من روح الثورة والرغبة في التقدم، ويذكر له أنه كان واحدا من الثائرين على تباطؤ الشيخ المراغي نفسه في الإصلاح بعد عودته إلى الأزهر (١٩٣٥)، وكان شلتوت، فيما يرويه الدكتور رجب البيومي، عضوا فيما سمي بجماعة الشيخ عبد المجيد سليم (التي ضمت الدكتور محمد البهي ، والشيخ محمد المدني ، والشيخ عبد العزيز عيسي)، وقد شنت هذه الجماعة حملة على الشيخ المراغي لتباطئه في الإصلاح، وقد بدأ شلتوت الدعوة إلى الإصلاح في جماعة كبار العلماء بمحاضرة صريحة ألقاها في كلية الشريعة تحت عنوان «السياسة العلمية التوجيهية للأزهر» أثنى فيها على المذكرة الإصلاحية ولخص ما قرره الإمام المراغي من ضروب الإصلاح، وانتهى إلى أن أمدا طويلا قد مر على الأستاذ الأكبر دون أن يأخذ بما يرى:

• «فلم تزل كتب الأزهر هي الكتب المعقدة التي تنحو في التأليف منحي عسيرا لا يسهل على القارئ اجتيازه إلا بشرح الألفاظ، وإرجاع الضمائر، وشغل الأفهام بصحيح العبارة، وكأنها هدف لذاتها دون ما تقصد إليه من معنى ضاع في ضباب الصياغة» .

• «ولم نزل نشغل أنفسنا بالفروض الفقهية المستحيلة كما اشتغل بها فقهاء العصر المملوكي».

• «ولم تزل الإسرائيليات ذائعة تملأ كتب التفسير التي تدرس بالأزهر » .

• «ولم يزل الطلاب يمتحنون في المقروء فحسب، دون أن يتموا المنهج، وهم لا يقطعون من الزمن الدراسي في العام الطويل غير أربعة أشهر إن لم تقل!» .

«وإن ذلك كله يدل على أن الإصلاح المدون في مذكرة الأستاذ الأكبر قد تجمد ولم ينطلق».

وهكذا واجه شلتوت المسؤولين الأزهريين مواجهة خطيرة بعد أن أذاع مذكرته وطبعها وبعث بها إلى الجرائد والصحف، فنقلت خلاصتها، واضطر بعض أنصار الشيخ المراغي أن يهاجموها، وأن يقولوا إن خطوات الإصلاح تسير بنجاح.

ـ ١٢ ـ

ومع مطلع الخمسينيات عين الشيخ محمود شلتوت مراقبا عاما للبحوث والثقافة الإسلامية بالأزهر (١٩٥٠)، وهو المنصب الموازي لمنصب استحدث في وزارة المعارف، وكان نواة لوزارة الثقافة فيما بعد.

ويذكر للشيخ شلتوت أنه وضع أول خطة منهجية لعمل هذه المراقبة بما يخدم علاقات مصر الثقافية مع العالمين العربي والإسلامي وغيرهما .

وبعد الثورة بفترة عين الشيخ محمود شلتوت مستشارا في المؤتمر الإسلامي (١٩٥٧) الذي كان الرئيس السادات رئيسا له .

ومن خلال هذا الموقع أتيحت له الفرصة لأن يشارك في اجتماعات أسبوعية مع علماء من بلاد الإسلام، وأن يتعامل وجها لوجه مع بعض قادة الثورة ومسؤولي العهد الجديد .

وقد عين الشيخ شلتوت وكيلا للجامع الأزهر في عهد الشيخ عبد الرحمن تاج، وكانت بعض الصحف المتصلة بالحركات والتجمعات الإسلامية ترى الوضع مقلوبا، وترى الشيخ شلتوت أولى بالمشيخة من الدكتور عبد الرحمن تاج، ومن الطريف أن الدكتور تاج نفسه عين شيخا خلفا للشيخ محمد الخضر حسين حين رأت الثورة ألا يكون شيخ الأزهر نفسه فوق السن القانونية للتقاعد، وهكذا أتيح

للشيخ تاج المولود (١٨٩٦م) أن يخلف من كان يكبره بعقدين من الزمان، فقد كان الشيخ الخضر حسين من مواليد ١٨٧٧م.

ومن الطريف مرة ثانية أن الشيخ شلتوت جاء إلى المشيخة وهو في الثالثة والستين من عمره حيث عين شيخا للأزهر في ١٣ من أكتوبر ١٩٥٨م، وقد صدر في عهده قانون تطوير الأزهر المعروف بالقانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ بشأن إعادة تنظيم الأزهر والهيئات التي يشملها، وبعد صدور هذا القانون أصبح الشيخ شلتوت أول حامل للقب الإمام الأكبر، بناء على نص القانون الجديد كما أصبح عضوا ورئيسا لمجمع البحوث الإسلامية، وشاءت الأقدار ألا يحضر افتتاح ذلك المجمع بسبب وفاته المفاجئة.

ـ ١٣ ـ

وإلى الشيخ شلتوت يرجع الفضل في نشر تعليم الفتاة في الأزهر، وهو الذي بدأ سياسة إنشاء معاهد الفتيات، وكلية البنات الإسلامية، أو فلنقل من باب الاحتياط وحفظ حقوق الآخرين : إن ذلك قد تم بتوجيهه ومسعاه.

وقد دب أكثر من خلاف بينه وبين الدكتور البهي وزير شؤون الأزهر في تطبيق القانون الجديد للأزهر، وكان هذا أمر طبيعيا ومتوقعاً.

ـ ١٤ ـ

وننتقل من نشاطه التعليمي والتنفيذي إلى نشاطه وفكره الفقهي . ومن الحقّ أن نبدأ فنقول : إنه كان محظوظا كما كان مستحقا للحظ.

ففي الثلاثينيات كان من حظ الشيخ شلتوت أن اتصل مبكرا بالمجتمع العلمي الدولي، حيث اختير مع الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الأزهر ليمثلا الأزهر سنة ١٩٣٧ في مؤتمر لاهاي العالمي لدراسة القانون الدولي المقارن، وهو المؤتمر الذي حضره عدد من أبرز الفقهاء والأصوليين في جميع أنحاء العالم، ليتدارسوا ما يحبذونه

من الأفكار القانونية.

ومما يذكر أن الشيخ أحمد إبراهيم، وكان أستاذا بكلية الحقوق، كان هو الذي مثل الجامعة المصرية في هذا المؤتمر.

وقد قدم الشيخ محمود شلتوت في هذا المؤتمر بحثا ضافيا تحت عنوان «المسؤولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية» موضحا معني المسؤولية في الإسلام، وشارحا نصوص الفقهاء في الضمان والتعويض، ومستشهدا بنصوص القرآن والسنّة في تحديد المسؤولية، وقد امتد بها الإسلام بحيث تشمل :

- مسؤولية الطبيب عن مريضه، ومسؤولية مَنْ يقصر عن إغاثة الملهوف،
- ومسؤولية صاحب الحيوان حين يتلف زرعا مملوكا لغير صاحبه،
- ومسؤولية المسلم أمام إتلاف محترزات غيره التي يحرّمها الإسلام كالخمر ولحم الخنزير، موضحا المراد من قول الفقهاء: حقوق الله، وحقوق العباد.
- المسؤولية الناشئة عن مخالفة العقد، والاستيلاء القهري مما عُرف في الفقه باسم الغصب
- تحقق السببية بين الفعل والضرر، مقسما التسبب إلى إيجابي وسلبي، والتسبب الإيجابي واضح معروف، أما التسبب السلبي فقد فسر الشيخ غامضه بأمثلة ونصوص ذات إقناع.
- المسؤولية الجنائية، و الحدود في الإسلام مقدمًا حديثا جمع من نصوص الفقهاء ما كان غائبا عن الكثيرين حتى من ذوي التخصص أنفسهم.

ـ ١٥ ـ

أوصي الشيخ شلتوت في نهاية بحثه بحرية الفقهاء :

«إن الشريعة الإسلامية لم تقيد الفقهاء بعد أصولها الكلية بخطة معينة في البحث،

وإنما فوضت لهم الرأي والاعتماد على ما يقدرون من مصالح وواجبات في العصور المختلفة والبلدان المتباينة».

وكانت نتيجة الاقتناع بهذا البحث أن قرر المؤتمر بإجماع أعضائه اعتبار الشريعة الإسلامية مصدرا من مصادر التشريع الحديث، مع الاعتراف بصلاحيتها للتطور، كما قرر المؤتمر أن تكون اللغة العربية ـ لغة الشريعة الإسلامية ـ إحدى لغات المؤتمر في دوراته المقبلة، وأن يدعى إليه أكبر عدد من علماء الإسلام على اختلاف المذاهب والأقاليم.

ـ ١٦ ـ

ومع مطلع الأربعينيات اختير الشيخ شلتوت عضوا في جماعة كبار العلماء (١٩٤١) برسالة عن «المسؤولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية» وهي الرسالة التي كانت نواتها من قبل بمثابة موضوع إسهامه من قبل في مؤتمر القانون الدولي.

وقد نال هذه العضوية وهو في الثامنة والأربعين من عمره، سابقا بذلك كثيرا من علماء عصره الذين لم ينشغلوا بنيل هذه العضوية إلا بعدها بسنوات ، ومن هؤلاء على سبيل المثال الأستاذ محمد الخضر حسين الذي نالها بعده بسنوات.

ـ ١٧ ـ

اختير الشيخ شلتوت بعد خمس سنوات لعضوية مجمع اللغة العربية ضمن عشرة من الأعضاء المعينين (١٩٤٦)، وكان من أصغر الأعضاء سنا. وكان له جهد وافر في نشاط مجمع اللغة العربية مثل: مشاركته في لجنة القانون والاقتصاد، ولجنة للنظر في المصطلحات المتشابهة التي تستعمل في أكثر من علم، ولجنة لدراسة النحت، ولجنة ألفاظ الحضارة، ولجنة الأدب، ولجنة معجم ألفاظ القرآن الكريم،

كما ألقي عدة بحوث وكلمات منها كلمة قيمة في تأبين الشيخ عبد الوهاب خلاف.

ـ ١٨ ـ

وفي هيئة كبار العلماء بدأ شلتوت كفاحه (وعضويته أيضا) بتقديم اقتراح جوهري يبعث في هذه الجماعة فيضا من النشاط العقلي و الحركة العلمية، ويحدد لها مناهج من العمل الدائب المستمر، وقد لخص الدكتور محمد رجب البيومي خطة شلتوت لبث الروح في جماعة كبار العلماء فيما يلي:

«أن يكون لجماعة كبار العلماء مكتب علمي دائم، وأن يجعل لهذا المكتب مكان معين معروف، شأن كل هيئة رسمية من الهيئات التي تعمل لأغراض خاصة».

أما مهمة هذا المكتب بعد إنشائه فهي ما يلي:

- (أ) معرفة ما تُهاجم به الأديان عامة، والدين الإسلامي في عصرنا الحاضر، والرد عليه ردا كافيا مقنعا بأسلوب ملائم لطريقة البحث الحديث.

- (ب) بحث ما يحصل فيه الاختلاف بين علماء العصر من جهة أنه بدعة يجب تركها أو ليس كذلك، ووضع الأصول الكفيلة بتمييز ما هو بدعة مما ليس بدعة، والعمل على نشر ذلك ليرجع إليه الناس.

- (جـ) العمل على وضع مؤلف يحتوي على بيان ما في الكتب المتداولة من الإسرائيليات التي دُست على التفسير، وأخذها الناس على أنها من معاني القرآن، والتي لا يدل على صحتها نقل، ولا يؤيدها عقل.

- (د) إصدار الفتاوى في الاستفتاءات التي ترد من المسلمين في جميع الأقطار، إلى مشيخة الجامع الأزهر.

- (هـ) بحث المعاملات التي جدت وتجد في العصر الحاضر من جهة حكم

الشريعة فيها، حتى يظهر للناس سعة صدر الشريعة وقدرتها على تلبية حاجات الناس في مختلف العصور.

• (و) تنظيم طرق الوعظ والإرشاد، والاتصال بالهيئات المعدة لذلك، كوزارة الشؤون الاجتماعية، والجمعيات الإسلامية في مختلف الأقطار.

• (ز) التنقيب عن الكتب المفيدة في مختلف العلوم، والعمل على إحيائها وإخراجها إخراجا علميا متقنا.

• (حـ) الإشراف على مجلة الأزهر، والعمل على توجيهها في طريق تخدم به الحركة الفكرية الإسلامية، وتبرز به ثقافات الكليات الثلاث.

ـ ١٩ ـ

ويروي الدكتور محمد رجب البيومي أن لجنة برئاسة الشيخ عبد المجيد سليم قد تشكلت لدراسة اقتراح الشيخ شلتوت، لكن الدراسة لم تنته إلى خطوات إيجابية.

وظل الشيخ شلتوت حريصا على تنفيذ أفكاره حتى أصبح شيخا للأزهر، فعمل على إنشاء ما سمي بمجمع البحوث الإسلامية، وهو الصورة التي آلت إليها جماعة كبار العلماء، ليعطي الصورة القوية التي أرادها لهيئة كبار العلماء، فضلا عن توسيع عضوية المجمع، كي تشمل غير الأزهريين من أعلام الدين في العالم الإسلامي جميعه.

و يبدو لي ، والله أعلم ، أن الشيخ شلتوتا استحضر في ذهنه صورة مجمع اللغة العربية الذي كان عضوا فيه منذ ١٩٤٦ حين أنجز تحويل جماعة كبار العلماء إلى مجمع للبحوث الإسلامية .

ـ ٢٠ ـ

كان الشيخ شلتوت فقيها مجتهدا صاحب رأي، وكانت له فتاوى جريئة في المعاملات المالية لم تكن قد صيغت بهذا الوضوح لدي الفقهاء السابقين، وكان له

رأيه محدد في الربا والسندات والأسهم، وعلى سبيل المثال فقد أفتى بجواز الأرباح المحددة بنسب للأسهم في الشركات التعاونية، وقال: «إن هذه الشركات تعد نوعا جديدا من الشركة أحدثه أهل التفكير في طرق الاقتصاد والاستثمار، وليس فيه ظلم لأحد، أو استغلال لحاجة أحد».

وهكذا أباح الشيخ شلتوت الأرباح المحددة التي تدفعها مصلحة البريد لأصحاب الأموال المودعة لديها في صناديق التوفير، ورأي أن هذا الربح لا يعد من الربا المحرم : «فقد قصد بهذا الإيداع حفظ مال المودع من الضياع، وتعويد نفسه على التوفير والاقتصاد من ناحية، ومن ناحية أخرى قصد به إمداد المصلحة بزيادة رأس مالها ليتسع نطاق معاملاتها وتكثر أرباحها فينتفع العمال والموظفون، وتنتفع الحكومة بفائض الأرباح» .

وقد بين الشيخ شلتوت أن الربا المحرم «هو الربا الذي حُدد بالعرف الذي نزل فيه القرآن، بالدين يكون لرجل على آخر فيطالبه به عند حلول أجله فيقول له الآخر: أخر دينك وأزيدك على مالك، فيفعلان ذلك (وهو الربا أضعافا مضاعفة)، وهذا الصنيع لا يجري عادة إلا بين معدم غير واجد، وموسر يستغل حاجات الناس غير مكترث بشيء من معاني الرحمة المشروعة، فنهاهم الله عنه في الإسلام، وهذا النوع من الربا ينطوي على ظلم عظيم، واستغلال فاحش لحاجة الفقير» .

ـ ٢١ ـ

وكان الشيخ شلتوت يقول إن الفقهاء السابقين (عليه) قد توسعوا كثيرا فيما يتناول الربا، ورأي كثير منهم أن الحرمة فيما يحرّمون تتناول المتعاقدين معا المقترض والمقرض، وإني أرى ـ الضمير للشيخ شلتوت ـ أن ضرورة المقترض وحاجته مما يرفع عنه إثم التعامل، لأنه مضطر أو في حكم المضطر، وقد صرح بذلك بعض الفقهاء فقالوا: «يجوز للمحتاج الاستقراض بالربح، وإذا كان للأفراد ضرورة أو

حاجة تبيح لهم هذه المعاملة فإن للأمة ضرورة أو حاجة كثيرا ما تدعو إلى الاقتراض بالربح،والإسلام الذي يبني أحكامه على قاعدة «اليسر ودفع الضرر» يعطي للأمة في شخص أفرادها وهيئاتها هذا الحق، ويبيح لها أن تقترض بالربح تحقيقا لتلك المصالح، «ولا يكون ذلك إلا بالقدر المحتاج إليه، ولدفع الضرورة والحاجة، ولا يكون قرضا إلا من جهة لا تضمر استغلالنا» .

ومن الجدير بالذكر أن الشيخ شلتوت كان يوافق في رأيه بعض أسلافه ومنهم محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، وعبد الوهاب خلاف، لكن الشيخ محمد أبا زهرة حمل عليه حملة شعواء.

ـ ٢٢ ـ

و كان الشيخ شلتوت يفرق في الحكم الشرعي بين الأسهم والسندات، حيث كان يرى أن الأسهم من «الشركات» التي أباحها الإسلام باسم المضاربة، وهي التي تتبع الأسهم فيها ربح الشركة وخسارتها، أما السندات وهي القرض بفائدة معينة فإنها لا تتبع الربح والخسارة، فالإسلام لا يبيحها إلا حيث دعت إليها الضرورة الواضحة التي تفوق أضرارها.

ـ ٢٣ ـ

وقد ظل الشيخ شلتوت يدعو إلى الحرية المذهبية الصحيحة المستقيمة على نهج الإسلام، وكان يرفض العصبية الضيقة، والتعصب الأعمى لمذاهب فقهية معينة.

وكان الشيخ شلتوت يتطلع إلى تحقيق هذه الوحدة من خلال فكرة التقريب بين المذاهب، وكان له نشاطه المتصل والمشهور في «جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية»، وكان يؤمن أن هذه الدعوة هي «دعوة التوحيد والوحدة، هي دعوة الإسلام والسلام وقد كان يقول : «لقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم،

وأسهمت منذ أول يوم في جماعتها، وفي وجوه نشاط دارها بأمور كثيرة».

ومن الجدير بالذكر أن جماعة ـ تقريب بين المذاهب ـ كانت قد تألفت برياسة الزعيم الوطني والسياسي المخضرم محمد على علوبة باشا، وبتأييد الإمام المراغي، والإمام عبد المجيد سليم، والإمام الأكبر مصطفي عبد الرازق، وقد دعت في برنامجها إلى نبذ الخلاف وتلافي الشقاق، وأكدت أن القرآن الكريم والسنّة المطهرة هما أساس الدين، فبهما تقررت قواعده، وإليهما يرجع المسلمون في كل شأن من شؤون الحياة.

وكان من نصيب الشيخ شلتوت أن يقوم بالدعوة إلى الجماعة محاضرا وكاتبا، وخطيبا.

ـ ٢٤ ـ

ومع ما عرف عن الشيخ من ميل إلى التقريب فقد تعرض لهجوم الشيخ مصطفي صبري شيخ الإسلام في الخلافة العثمانية عن فتواه فيما يتعلق بالمسيح، وكانت فتوى شلتوت فيما يتعلق بحكم مَنْ أنكر أن عيسى قد رُفع بجسمه إلى السماء، وأنه فيها حي إلى الآن، وأنه سينزل منها آخر الزمان، وكان شلتوت يرى أن مَنْ أنكر هذا لا يكون منكرا لما ثبت بالدليل القطعي،فلا يخرج عن إسلامه وإيمانه، ولا ينبغي أن يحكم عليه بالردة، بل هو مسلم مؤمن ولا شبهة في إيمانه عند الله.

أما الشيخ مصطفي صبري فقال : إن هذه الفتوى كتبت بروح قاديانية، وأن المسلمين في الهند سيحزنون لمَنْ ينصر القاديانية عليهم.

ـ ٢٥ ـ

ونأتي إلى الجانب الذي صنعته التصويرات والكتابات الصحنيه عن الشيخ الجليل ، وهو جانب لابد من مطالعة نموذج له لأنه يمثل نموذجًا لما تتطلبه

الصحافة من أمثال الشيخ وطبقته من الفتاوى .

تروي الأستاذة سناء البيسي أن الشيخ شلتوتا كان يثور على أصحاب سرادقات المآتم الذين يضعون الميكروفونات المتعددة لتجسيم صوت المقرئ بكيفية تثير أعصاب الأهالي، وتحرم المريض من السكون، والمتعب من الراحة، والطالب من استذكار دروسه، ولما قيل له: لماذا لا تكتب مقالا تهاجم فيه هذه العادات المزعجة؟ قال: «نحن الآن في عهد ملك طاغية، وحكومة مستبدة، فلو ظهر مثل هذا المقال فسوف تخرج صحف الحزب الحاكم لتقول : إن الشيخ شلتوت يمنع تلاوة القرآن! ولا يبعد أن يصدق الناس ذلك، وقد أوصانا الرسول صلى الله عليه وسلم بأن نداري سفهاءنا، لا أن نقاتلهم!».

ثم عاود الشيخ القول: «إني لأرثي للأموات أكثر من رثائي للأحياء، فما أحسب أحدا من الذين تزعجهم هذه الميكروفونات يقابل هذا الإزعاج بالترحم على المرحوم!».

كما تروى أنه «عندما خرج أذناب الملك فاروق على الناس بقصة نسبه الشريف المزعوم عن طريق أمه نازلي، قيل للشيخ شلتوت: كيف يسكت السادة العلماء وكبار علماء الدين عن هذه الكذبة الضخمة؟ فقال: «إن للدين ربا يحميه من الإفك والأفاكين، وقد رأينا في التاريخ حكاما ادعوا الألوهية، فذهبت ريحهم، ولن يبعد على فاروق أن يدعي الألوهية إذا طال به العهد، ولن يطول عهد رجل يفتري على الله كذبا»، ولم يطل العهد بفاروق بعدها، وكأنما كان فضيلته يقرأ سطور الغيب !».

ــ ٢٦ ــ

وتروي سناء البيسي أيضا:

« كانت فتوى الإمام الأكبر الشيخ شلتوت مفاجأة مفرحة للمسلمين في مصر والعالم عندما أفتى ليس بإتاحة الغناء والموسيقي بكل ألوانها، ولكن بالدعوة إلى

تعلمها ومعرفة أصولها، فالغناء والموسيقي الأصل فيهما الحل، والحرمة عارضة، وحب اللذة: غريزة فطرية في الإنسان، والشرع ينظمها دون قمع ولا إفراط، وجميع ما قيل بشأن التحريم ضعيف، أو يتحدث عن توظيف الغناء والعزف في المحرمات، وأضاف الشيخ شلتوت في فتواه أنه قد نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم عن كثير من الصحابة والتابعين والأئمة والفقهاء أنهم كانوا يسمعون ويحضرون مجالس السماع البريئة من المجون والمحرمات، وكان الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر في القرن الثالث عشر الهجري ذا ولع شديد بالسماع، وعلى معرفة بأصوله، ومن كلماته في بعض مؤلفاته: «مَنْ لم يتأثر برقيق الأشعار، تتلى بلسان الأوتار، على شطوط الأنهار، في ظلال الأشجار، فذلك جلف الطباع حمار!».

ـ ٢٧ ـ

ونأتي إلى الآثار العلمية للشيخ فنبدأ بتفسير الشيخ للقرآن الكريم وهو التفسير الذي لم يسلك الشيخ فيه مسلك التفاسير التي تفسر القرآن آية آية، وإنما حرص على أن يكون تفسيره تفسيرا عاما يلجأ إلى إبراز جوهر كل سورة وما تهدف إليه، مفصلا القول في بيان أبرز القضايا التي اشتملت عليها السورة.

ومن الطريف أن الشيخ شلتوتًا نشر تفسيره لكتاب الله من خلال جماعة التقريب، حيث نشر التفسير في حلقات متوالية على صفحات مجلة «رسالة الإسلام» وهي المجلة التي كانت لسان حال جماعة التقريب.

وقد حرص الشيخ شلتوت في تفسيره للقرآن على أن يكون تفسيره مسايرا لجماعة التقريب في طرح الخلافات المذهبية، التي حملت حملا باطلا على كتاب الله، بأن يكون التفسير تفسير المسلمين جميعا، لا يتعصب لمذهب فقهي، ولا يميل إلى لون خاص من ألوان السياسة أو العقيدة الكلامية، كما ينجو من سطوات العلوم

اللسانية من نحو وبلاغة، والعقلية من فلسفة ومنطق، ليجيء وضيء الدلالة، وقد اختص مشكلات عصره بمزيد من التحليل، دل على إيمانه بضرورة نزول الفقهاء والعلماء إلى الجمهور» .

وقد جمعت الفصول التي كتبها الشيخ في التفسير بعد فترة في مجلد واحد بعنوان «تفسير القرآن الكريم» شمل ثلث القرآن فقط أي الأجزاء العشرة من القرآن الكريم فقط .

ـ ٢٨ ـ

وقد دعا الشيخ شلتوت في تفسيره للقرآن الكريم إلى ضرورة تجنب أمرين في التفسير وقع فيهما الكثيرون، وكان ينبغي أن يظل القرآن بعيدا عنهما:

➢ الأمر الأول هو استخدام آيات القرآن لتأييد الفرق والمذاهب في المجتمع الإسلامي، والتنافس في العصبيات السياسية والمذهبية، حيث امتدت توجهات أصحاب الفرق المختلفة لتصبغ تفسير آيات القرآن وتأويلها بما يتوافق مع مذاهبهم، أو يخرجونها عن بيانها الواضح لكيلا تصلح لمذاهب خصومهم، وبذلك جعلوا القرآن تابعا بعد أن كان متبوعا، ومحكوما عليه بعد أن كان حاكما.

➢ أما الأمر الثاني الذي كان شلتوت يطالب بالنأي عنه فهو استنباط العلوم الكونية والمعارف النظرية الحديثة من القرآن، وكان يرى أن هذا اتجاه خاطئ في تفسير القرآن لعدة أسباب.

- أولها: أن القرآن أنزله الله ليكون كتاب هداية للناس، وليس كتابا يتحدث إليهم عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف.
- وثانيها: أن هذا الاتجاه يحمل أصحابه والمغرمين به على تأويل القرآن تأويلا متكلفا يتنافي مع الإعجاز ولا يسيغه الذوق السليم.

- وثالثها: أنه يعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان، والعلوم لا تعرف الثبات، ولا القرار، ولا الرأي الأخير، فقد يصح اليوم في نظر العلم ما يصبح غدا من الخرافات، فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة لعرضناه للتقلب معها، وتحمل تبعات الخطأ فيها، ولأوقفنا أنفسنا بذلك موقفا حرجا في الدفاع عنه،

وكان الشيخ شلتوت يشير في هذا الصدد إلى حقيقة مهمة عبر عنها بقوله: «حسبنا أن القرآن لم يصادم - ولن يصادم - حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول».

ـ ٢٩ ـ

حظيت مؤلفات شلتوت بالانتشار الواسع في شتى أنحاء العالم العربي والإسلامي، ولا تزال حتى الآن يعاد طبعها على الرغم من إهمال الناشرين لقيمتها، ويكفي أن نذكر بعضها وقد طبع للمرة السادسة عشرة. ومن أشهر هذه المؤلفات: «الإسلام عقيدة وشريعة»، و«من توجيهات الإسلام» وهو نفسه الكتاب الذي كان عنوانه الفرعي «تصحيح بعض المفاهيم الدينية.. توضيح موقف الإسلام من بعض المشاكل.. الأخلاق الإسلامية،، ضروب من العبادات».

ـ ٣٠ ـ

ومن حق القارئ علينا أن نعرفه بأشهر كتب الشيخ شلتوت بعد أن تحدثنا عن تفسيره للقرآن الكريم :

- فأما أشهر كتبه على الإطلاق فهو «الإسلام عقيدة وشريعة» وفيه يتحدث شلتوت عن أصول الإسلام، في العقيدة والتشريع، فيتكلم عن ذات الله وصفاته، وعن القضاء والقدر وعالم الغيب، والجبر والاختيار، ثم عن طريق ثبوت العقيدة في

كتاب الله، وعن السنّة ومكانتها في الإسلام عقيدة وتشريعا، وعن الإجماع وثبوت العقيدة، وقد جاء بالجديد فيما أفاض فيه من حديث الأسرة زواجا وطلاقا ونسلا وميراثا، ومن حديث المال والحدود والقصاص، والمسؤولية الجنائية والمدنية، ومن حديث أسس الدولة في الإسلام، ومكانة الشورى وأولي الأمر، والتكافل الاجتماعي، والعلاقات الدولية.

• أما كتابه «الفتاوى» فيتضمن مجموعة كبيرة من فتاويه تتميز بطابع خاص، هو الإحساس القوي بالحياة اليومية وبأحداثها، والعمق في فهم الإسلام وتطبيق مبادئه.

• أما كتابه «من توجيهات الإسلام» فقد عالج فيه بعض البحوث الإسلامية التي رأي أن يتناولها بتفصيل وتبسيط حتى تصل إلى كل قارئ .

ـ ٣١ ـ

وللشيخ شلتوت بالإضافة إلى هذه الكتب المشهورة عدد من المؤلفات والرسائل والمحاضرات في علوم الشريعة:

• «فقه القرآن والسنّة» .

• «يسألون» .

• «حكم الشريعة في استبدال النقد بالهدي» .

• «فصول شرعية اجتماعية» .

• «حكم الشريعة الإسلامية في تنظيم النسل» .

• «الإسلام والوجود الدولي للمسلمين» .

• «القرآن والقتال» .

- «تنظيم العلاقات الدولية في الإسلام».

وله من المؤلفات في التعريف بالإسلام:

- «هذا هو الإسلام» .
- «عنصر الخلود في الإسلام» .
- «الدعوة المحمدية» .
- «المقارنة بين المذاهب».

وله من المؤلفات في القضايا الاجتماعية:

- «القرآن والتكافل الاجتماعي» .
- «منهج القرآن في بناء المجتمع» .
- «القرآن والمرأة» .
- «أحاديث الصباح».

وله أيضا بحوث أخرى أهمها:

- «المسؤولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية» وهو البحث الذي نال به عضوية جماعة كبار العلماء .
- «الإسلام والعلاقات الدولية في السلم والحرب».

ـ ٣٢ ـ

وبالإضافة إلى هذا كله فإن له مجموعة من الأحاديث الإذاعية لا تزال تذاع حتى الآن، وقد تميز شلتوت في أحاديثه الإذاعية بالبيان الناصع، والقدرة على تبسيط الأفكار، وتناول الفلسفات تناولا سهلا حبب الناس في الاستماع إليه بصوته الجهوري المميز ،و دفعهم إلى قراءة آثاره الفكرية.

ـ ٣٣ ـ

وعلى سبيل الإجمال فقد كان للشيخ شلتوت نشاط واسع ومؤثر في الحياة الثقافية الدينية وقد شمل نشاطه المحاضرات التي كان يلقيها في المنتديات العامة، والأحاديث الإذاعية، والمقالات الكثيرة في الصحف والمجلات، وكانت محاضراته ومقالاته تشمل مختلف النواحي الدينية والاجتماعية.

وقد كان الشيخ شلتوت محل تقدير في العالم الإسلامي كله ، وزار عددا من البلاد الإسلامية، ومنحته عدة دول الدكتوراه الفخرية، وأوسمة الشرف تقديرا لعلمه، وفضله، واعترافا بمنزلته الرفيعة، ومكانته السامية.

ويروى ان الرئيس الفلبينى وضع طائرته الخاصة وياوره الخاص تحت تصرف الشيخ شلتوت طوال رحلة الشيخ إلى الفلبين أما الرئيس الجزائرى أحمد بن بيلا فقد أرسل إليه مندوبا يطمئن على صحته عندما مرض وزاره في منزله كما زاره أيضًا الرئيس العراقي عبد السلام عارف.

ومنحته أربع جامعات في أربع دول درجة الدكتوراه الفخرية ، ومنحته أكاديمية شيلي درجة الزمالة الفخرية ، وأهدى له رئيس الكاميرون قلادة خاصة .

ـ ٣٤ ـ

عاش شلتوت حياة شخصية وعائلية أقرب إلى المثالية، كان نجما لامعا، وإنسانا عظيم في الوقت نفسه، وقد ظل حب الخير متمكنا من نفسه طيلة حياته.

قضي الشيخ شلتوت معظم حياته يسكن في شقة بالدور الثالث من عمارة في شارع إسماعيل الفلكي بحي الظاهر، وفي أخريات حياته انتقل (١٩٥٨م) إلى بيت خاص في مصر الجديدة، وقد ترك أربعة أنجال: إيهاب الضابط، والمهندس سعيد، وخبير البترول أحمد، وجلال موجه العلوم بالأزهر، وأربع بنات: نزيهة، وحكمت، وفوزية، وفكرية.. ورزق بأربعين حفيدا».

ـ ٣٥ ـ

عانى الشيخ شلتوت متاعب متعددة ومتوقعة طيلة توليه المشيخة وقد وصلت الأمور إلى حد أنه قدم استقالته في ٦ من أغسطس ١٩٦٣، وقد ذيل استقالته بأنه لن يقبل على دينه وكرامته السكوت على تضييع أمانة الأزهر مطالبا بإعفائه منها:

«.. وليس أمامي إلا أن أضع استقالتي من مشيخة الأزهر بين أيديكم بعد أن حيل بيني وبين القيام بأمانتها، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

ـ ٣٦ ـ

وبالمواكبة لهذا أصيب الشيخ شلتوت من جراء ممارسات السياسة القاسية والعمل الشاق بالشلل في نصفه الأيسر وابتعد عن ممارسة منصبه.

ولما بدأ رجال الحكم يشعرون بالحرج أمام الزائرين الأجانب الذين يلحون في طلب زيارته، أشاعوا أنه اعتزل الحضور للأزهر بسبب مرضه، فما كان من الشيخ الثائر إلا الإعلان عن سفره إلى قطاع غزة بالسيارة الجيب، وقد حرص على أن يترك السيارة ليسير على قدميه ليتفقد أحوال أهلها.

ولم تمض شهور أربعة بعد هذه الاستقالة حتى دخل الشيخ شلتوت مستشفي الجمعية الخيرية لإجراء إحدى الجراحات، ونجحت العملية، ولم يكن الشيخ مرحا في يوم من الأيام أكثر منه في يومه الأخير بعد الإفاقة من البنج، فقد ظل يداعب أحفاده، وقبل أن تصعد روحه إلى بارئها بدقائق كان حديثه إلى زواره عن الإسراء والمعراج.. ثم توقف فجأة : أزمة قلبية طارئة.

....

ويبدو من هذا الوصف الذي أوردته مجلة «نصف الدنيا» نقلا عن عائلة الشيخ أنه أصيب بانصمام رئوي لا بأزمة قلبية.

وقد أقام له مجمع اللغة العربية حفل تأبين مهيب أبنه فيه عضوا المجمع الأستاذ على عبد الرازق، والدكتور محمد مهدي علام .

الباب السادس

فكرة التجديد

عبد المتعال الصعيدي

١٨٩٤م

- ١ -

ولد الأستاذ عبد المتعال الصعيدي في كفر النجبا مركز أجا محافظة الدقهلية (١٨٩٤م)، وبعد ولادته بشهر واحد مات والده فكفلته والدته، وقد حفظ القرآن الكريم في كتاب القرية، والتحق بالجامع الأحمدي بطنطا، وفيه ظهر تفوقه في التحصيل والفهم، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان منذ صباه قارئًا شغوفًا بمطالعة كل ما تظهره المطبعة من كتب الأدب والفلسفة وغيرها، كما كان حريصا على مطالعة الصحف والمجلات .

وقد مكنه الاجتهاد في التحصيل من أن يختصر سنوات الدراسة الأزهرية، وساعده على ذلك أن قوانين الأزهر العبقرية في ذلك العهد كانت تسمح بالتقدم للشهادات النهائية دون التزام بالنظام الكلاسيكي الذي يتطلب قضاء عام دراسي في كل صف أكاديمي ، حتى إنه كان من حق طالب السنة الأولى في القسم الثانوي أن يتقدم لامتحان الشهادة الثانوية مباشرة إذا أحس بالقدرة على اجتيازها، ولهذا نال عبد المتعال الصعيدي الشهادة العالمية القديمة في سن صغيرة جدًا (١٩١٨)، وكان ترتيبه الأول على الطلاب.

ومن الطريف أنه في العام نفسه ١٩١٨ كان الشيخ شلتوت هو الآخر قد حقق المركز الأول في امتحان العالمية القديمة في الامتحان الذي عقدته ما أسميها الجامعة الأزهرية الإقليمية الأولى المتمثلة في معهد إسكندرية الديني ، وذلك طبقا لنظام متطور أخذ به في ذلك الوقت كان امتحان الشهادة العالمية القديمة ينعقد في القاهرة والأسكندرية وطنطا ، وهي تجربة جامعية وأكاديمية رائدة أدعو الله سبحانه وتعالى أن يمد في عمري حتى أكمل دراستي عنها و أنشرها إن شاء الله .

ـ ٢ ـ

عين الأستاذ عبد المتعال الصعيدي عقب نيله العالمية مدرسًا بالمعهد الأحمدي في العام نفسه، وهو ما يدل على مدى التقدير والتشجيع الذي حظي بهما من أساتذته ومن المسؤولين عن الأزهر في ذلك الوقت، وقد أثبتت الأيام أن فراسة هؤلاء في التلميذ النابغ كانت في محلها.

ويروى أن عبد المتعال الصعيدي مارس التأليف في السنة الأولى لتعيينه بالتدريس فأصدر مؤلفا غير تقليدي في علم النحو، وقد كان كتابًا على الطريقة الاستنتاجية، وقد ذكر الصعيدي نفسه في ترجمته الشخصية أنه سبق بكتابه كتاب «النحو الواضح» للأستاذ الجارم، لكن المؤكد أنه لم يسبق حفني ناصف ومعاصريه، فعبد المتعال الصعيدي إذًا هو الرائد في التأليف النحوي على الأسلوب العصري في محيط الأزهر!

على أن علامة النبوغ التأليفي المبكر التي ظلت ماثلة في تاريخه من عصر شبابه الباكر كانت هي تأليفه الكتاب الثوري الذي كان بعنوان «نقد نظام التعليم الحديث للأزهر الشريف»، ذلك أنه انتقد في كتابه هذا ما كان يراه قصورا وجمودا في هذا النظام.

ـ ٣ ـ

وقد روي (أو حتى زعم) الأستاذ عبد المتعال الصعيدي فيما بعد أنه لم يشأ أن ينشر الكتاب إلا بعد مضي خمس سنوات على تعيينه في التدريس، لعلمه بما سوف يثيره هذا الكتاب من سخط عليه، وبخاصة أن أسلافه من أصحاب الرأي بين خريجي الأزهر كانوا قد تعرضوا لتجارب مماثلة وكان منهم، على ما نعرف، الشيخان محمد عبده ومحمد الأحمدي الظواهري.

وقد أغضب هذا الكتاب بالفعل بعض الأساتذة بالمعهد الأحمدي، وطالبوا شيخ المعهد بعقاب المؤلف بالفصل من الوظيفة، ومع أن هذا لم يحدث فقد عاقبه مجلس إدارة المعهد بخصم خمسة عشر يوما من راتبه، لكن الكتاب رفع اسم صاحبه عاليا في محيط المصلحين، ولقي الصعيدي تأييدا من بعض أعلام الأزهر كالشيخ يوسف الدجوي، والشيخ على سرور الزنكلوني، والشيخ على محفوظ، والشيخ مصطفي القاياتي.

وقد دعا هذا العقاب الأستاذ عبد المتعال الصعيدي إلى الاستمرار في الدعوة لإصلاح الأزهر، وقد ركز على هذا في عدد من المقالات التي نشرها في العديد من الصحف المصرية، ولم يقف اهتمامه عندما كان يدعو إليه، وإنما كان حفيًا أيضًا بجهود أسلافه من المنادين بالإصلاح التعليمي في الأزهر، وقد وصل به الحال إلى أنه كان يعد نفسه بمثابة مؤرخ الإصلاح في الأزهر.

ـ ٤ ـ

وعندما أنشئت كليات الجامعة الأزهرية في أوائل الثلاثينيات اختير الشيخ عبد المتعال الصعيدي (وكان لا يزال في أواسط الثلاثينيات) مدرسا بكلية اللغة العربية، وظل الشيخ عبد المتعال الصعيدي يشغل وظيفة التدريس في الجامعة الأزهرية حتى أحيل إلى التقاعد باستثناء فترة عوقب فيها (على الإدلاء برأي فقهي تجاوز به حدود ما كان أساتذته يطيقونه) فأبعد عن التدريس في الجامعة إلى التدريس في القسم العام بطنطا !!

ويذكر الدكتور محمد رجب البيومي أنه تتلمذ على عبد المتعال الصعيدي في كلية اللغة العربية بالأزهر، وعرف جهده العلمي بها، إذ كان أستاذًا مرموقًا للأدب العربي حين التحق بها ، ثم اختير لتدريس البلاغة، فالحديث، فالفلسفة، فالمنطق، وكان له في كل علم كتاب ذائع، وقد أتاح له التفرغ للعمل العلمي (والبعد عن

المناصب الإدارية) أن يزيد في عدد مؤلفاته.

ونحن نعتقد أن العمل في القاهرة قد هيأ الفرصة الأرحب للأستاذ عبد المتعال الصعيدي للاتصال بالمجتمعات الثقافية وللاتصال بمنابع الثقافة والمكتبات والمراجع، ونحن نعرف أنه كان كثير الكتابة في الصحف، دائب الحضور في المناقشات والمجادلات الفكرية.

ويذكر الدكتور محمد رجب البيومي أن عبد المتعال الصعيدي جادل كثيرًا من أعلام العصر على صفحات الرسالة، وكان منهم الأساتذة: عبد الحميد العبادي، وعباس محمود العقاد، وزكي مبارك، ومحمد أحمد الغمراوي، وعلى عبد الواحد وافي، وغيرهم.

وقد ظل الشيخ عبد المتعال الصعيدي طيلة حياته غزير الإنتاج، متعدد الاهتمامات، وكان له في المحيط الأدبي ذكر وصدى في مصر والعالم العربي.

ـ ٥ ـ

والحقيقة أن تآليف الشيخ عبد المتعال الصعيدي وكتاباته المتعددة امتدت إلى معظم العلوم التي كانت تدرس في الأزهر الشريف، وقد كان بعض هذه التآليف مبتكراً، وكان بعضها الآخر تقليديًا لكنه بلغ درجات قصوى من الإجادة والتميز.

وفي رأيي المتواضع أن أفضل كتاباته هي تلك التي جمعت بين التأريخ والتحليل، وفي هذا المجال يأتي كتابه «القضايا الكبرى في الإسلام» في المقدمة، وقد كشف عن فهم جيد وتحليل عميق للمعضلات الفكري التي واجهت الأداء الإسلامي في الحكم والسياسة والفقه والفكر على حد سواء.

وإذا جاز لي أن أقص شيئا معبرا في هذا المقام فإن أذكر أنني حينما عثرت على نسخة من هذا الكتاب في بداية الثمانينيات وبدأت قراءتها أيقنت أني لن أتركها حتى

انتهى منها، لكني أدركت أيضا أن الكتاب ستنفرط صفحاته تماما قبل أن أنتهي من مطالعته ، فذهبت من فوري إلى ورشة التجليد التي كنت أتعامل معها ، و سألت صاحبها أن كان ممكنا أن ينتهي لي من تجليد هذا الكتاب قبل أن ينتهي اليوم ؟ فاشترط على رسوم الكشف المستعجل ، وكانت أول مرة أدفع فيها مثل هذه الرسوم عن طيب خاطر!!

فلما انتهيت من قراءة الكتاب قدمته لوالدي عليه رحمة الله فلما انتهي من قراءته ظل يحتفظ به في مكتبته المقربة أي التي إلى اليمين من مكتبه ،وهي تلك التي تسمي عند الغربيين مكتبة المكتب ، والتي تقتصر على عدة مراجع ومعاجم وموسوعات صغيرة ، وقد رأى والدي عليه رحمة الله ورضوانه أن هذا هو الموضع الجدير بهذا الكتاب . وكان عليه رحمة الله ورضوانه محقا .

ومضى ربع قرن فإذا بالسياسة العالمية تبحث من خلال كبار الرسميين المصريين في محيط الإعلام والثقافة عن مؤلفات الصعيدي فأدركت للتو أنها تبحث عن بعض فقرات فيها في موضوعات محددة قد تفيد المماحكات السياسية المعروفة عند غير المسلمين والتي لا أحب أن أذكرها الآن ، لكنها على كل حال كانت فرصة لإعادة نشر تراث هذا الرجل العظيم .

ـ٦ـ

من ناحية ثالثة فقد كان الشيخ عبد المتعال الصعيدي صاحب قدرة على الجدل وإظهار الخطأ في بعض دعاوى التجديد والتصدي للاتجاهات التي اعتبرت معادية للعلوم الإسلامية والفكر الإسلامي السليم، ولعل أبرز مؤلفاته في هذا المجال:

- «نقد كتاب في الشعر الجاهلي» .
- «لماذا أنا مسلم؟» .

• «القرآن والحكم الاستعماري» .

كما كان للأستاذ عبد المتعال الصعيدي دور في تأليف الكتب المرجعية والجامعية في علوم الفلسفة وما يتصل بها:

• «الوسيط في تاريخ الفلسفة الإسلامية»،
• «تجديد علم المنطق في شرح الخبيصى على التهذيب».

كذلك كانت له إسهاماته في التأليف العصري للعلوم الفقهية:

• «التوجيه الأدبي للعبادات في الإسلام» .
• «الفقه المصور في العبارات».

وكانت له جهود بارزة في إعادة صياغة علوم البلاغة والنقد الأدبي انطلاقا من الفهم الحديث، وأبرز كتبه في هذا المجال:

• «النظم الفني في القرآن».

ولم تخل كتابات الأستاذ عبد المتعال الصعيدي من كتابات مستنيرة في موضوعات تقليدية، ومن أبرز هذه الكتب:

• «توجيهات نبوية» .
• «شباب قريش في بدء الإسلام» .
• «دراسات دينية وأدبية».

ـ ٧ ـ

وعلى وجه العموم تعتبر كتابات الشيخ عبد المتعال الصعيدي «الراديكالية» إن جاز هذا التعبير من أهم مؤلفاته، مع مرور الزمن ، وأبرز هذه الكتب:

• «الحرية الدينية في الإسلام» .

• و«حرية الفكر في الإسلام» .

وربما تضم هذه المجموعة أيضًا كتابه الذي أرخ به للتجديد في الإسلام :
• «المجددون في الإسلام من القرن الأول إلى الرابع عشر» وهو كتاب عميق يؤرخ لحركة التجديد في الإسلام.

وقد تحدث الشيخ عبد المتعال الصعيدي بالتفصيل عن جهوده هو نفسه في مجال الإصلاح في كتابيه:

• «قضية مجاهد في الإصلاح» .
• «تاريخ الإصلاح في الأزهر» .

وفي هذين الكتابين خلط الشيخ عبد المتعال الصعيدي الهم العام بالهم الخاص وكان يكرر الشكوى لما ناله من ظلم، إذا ما قورن بزملائه ممن تبوؤوا أعلى المناصب دون أن يقدموا في عالم التأليف بعض ما قدم، كما كان كثير التعبير عن ضيقه من تعرضه للمساءلة الرسمية وما أعقبها من حكم كان يراه مجحفا بحقه.

وعند قرب إحالته إلى التقاعد كتب في خاتمة الجزء الثاني من كتابه «تاريخ الإصلاح في الأزهر»، و«صفحات من الجهاد في الإصلاح» تلخيصا لجهاده على مدى أربعين عاما في سبيل إصلاح الأزهر، وما لاقاه في سبيل ذلك من عنت واضطهاد.

وكان الصعيدي قد أصدر (١٩٢٤م) كتابا مستقلا تحت عنوان «نقد نظام التعليم الحديث بالأزهر» قدم له بدراسة عن قانون التخصص بالقسم العالي، ثم عن فائدة العلوم الحديثة بالنظر إلى الطالب الأزهري الذي يرى طلبة المدارس يعلمون ما لا يعلم من المواد الثقافية والحضارية.

ـ ٨ ـ

وضمّن الشيخ الصعيدي كتبه هذه نقدًا عنيفًا لكتب المتأخرين ذات المتون والحواشي والشروح والتقارير، لأن دراستها تقوم على أساس من فهم عبارة المتن، ثم توجيه الاعتراضات إليها، ومحاولة تبرير القول المنقود، أما الوصول إلى لباب القاعدة العلمية فلا يصل إليه الطالب إلا بعد عناء طويل في فهم المماحكات، وقد لا يصل وهو لايزال طالبًا مبتدئاً، كما أن هذه الكتب تنهج نهجًا واحدًا في التأليف، بحيث يجد الطالب في السنوات الابتدائية ما يجده في السنوات التالية، «فهي لا تتدرج بالطالب من عهد إلى عهد، بل تأخذ المبتدئين بأساليب المنتهين» .

«وقد كان أسلوبها الجاف حائلا دون ثقافة الطالب بالتعبير الجيد، حيث لا يستطيع مَنْ اقتصر عليه من طلاب أن يجد مددًا قويًا لأسلوبه العلمي، وبذلك يعجز عن تحرير مسألة، فإذا صار عالمًا عجز عن كتابة مقالة يطالعها الجمهور في نصاعة وبيان».

«أما طريقة التدريس فلا تستند إلى أساليب التربية الحديثة، ولا تنتفع بثمار المتخصصين في شؤون التعليم ممن نهلوا من الثقافة المعاصرة، وأدركوا أثر علم النفس في تفهم عقلية الطالب، والاهتداء إلى ما يكفل تنمية المواهب، وتربية الملكات».

«كما أن التخصص مفقود بحيث يدرس الأستاذ الواحد مسائل الفقه والأصول والتوحيد والبلاغة والنحو والصرف معا، وتفرق جهوده في شتي العلوم يجعله سطحيا في جميعها، والأولى أن يجيد شعبة واحدة من شعب الدراسة، ليعكف على تعمقها، والإجادة في علومها، وقد يسعفه الذكاء بابتكار الجديد ».

كذلك أشار الأستاذ عبد المتعال الصعيدي بضرورة تعليم اللغات الأجنبية لتمد

الطالب بسلاح المعرفة في عصره المتطور، وتجعل من الأزهري داعية للدين في بلاد لا تعرف اللسان العربي!

ـ ٩ ـ

وكما أشرنا من قبل فقد عقد مجلس إدارة المعهد الديني في طنطا جلسة خاصة لمحاكمة الأستاذ عبد المتعال الصعيدي (وذلك بناء على طلب زملاء عالمنا الجليل)، وفي هذه الجلسة تقدم الصعيدي بدفع قانوني يشير إلى ما أباحته اللائحة الداخلية من حق المدرسين في نقد المناهج التعليمية، وهو حق مشتهر لا يجوز إنكاره، ولكن الضجيج الصاخب حول الكتاب دفع بالمسؤولين إلى عقاب المؤلف بخصم نصف مرتبه الشهري.

وقد لقي هذا الحكم كثيرا من المعارضة والانتقاد في الصحف وكتب في هذا المعني ، كما ذكرنا من قبل ، عدد من كبار العلماء بالأزهر، ومنهم الأساتذة: يوسف الدجوي، وعلى سرور الزنكلوني، وعلى محفوظ.

وكتب الخطيب الأزهري الشهير الشيخ مصطفي القاياتي مقالا قويا في تأييد رأي الأستاذ عبد المتعال الصعيدي وتحبيذه، مشيرا إلى اهتمامه بالأزهر، وحرصه على نفع الطلاب، وتفانيه في خدمة الإسلام.

ـ ١٠ ـ

و على مستوى الأداء المهني والوظيفي ظل الشيخ عبد المتعال الصعيدي يعد نفسه من المجاهدين في سبيل الإصلاح والتجديد، وكان يصف منهجه بأنه يترسم خطا جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وكان يجاهر بأن أقوم طريق لنهضة المسلمين هو الطريق الذي دعيا إليه، وكانت فكرة التجديد بالمعنى الشامل مسيطرة على تفكيره، فالإسلام نهضة دينية ومدنية معاً، ولا يقتصر الأمر على ما يصلح الآخرة

وحدها، بل يدخل فيه ما يصلح الدنيا أيضا، بل إن «العبادات أيضا يقصد منها في الأكثر أمور تعود علينا بالمصلحة في دنيانا قبل أن تعود علينا في أخرانا».

وفي بحثه «تاريخ المجددين في الإسلام» يصور الأستاذ عبد المتعال الصعيدي التجديد على أنه تاريخ نهوض المسلمين في أمور دنياهم قبل أن يكون نهوضهم في أمور أخراهم، لهذا لا يهتم من المجددين إلا بمَنْ يعمل لهذه الغاية، وقد وصل في إيمانه بالتجديد إلى دعوة المسلمين إلى أن يزيلوا من نفوسهم فكرة المهدي المنتظر، وأن يضعوا بدلا منها فكرة المجدد المنتظر، لينهض بهم في هذا الزمان، ويصير بالناس إلى عهد السلام والوئام.

وأول شرائط المجدد في نظر الأستاذ عبد المتعال الصعيدي أن يكون بعيدًا عن التعصب الممقوت: «فلا محل للتعصب في مجال التجديد والمجددين، ولا يصح أن يكون لمذهب المجدد في الدين أثر في غايته في التجديد، بل يجب أن ينظر في دعوته إلى المسلمين جميعا، فلا يميز فريقا على فريق، ولا يقصد بالتجديد فرقة دون فرقة، بل يسعى في خير المسلمين جميعا».

ـ ١١ ـ

ومن المهم أن نشير إلى حقيقة مهمة، وهي أن الأستاذ عبد المتعال الصعيدي كان ينتقد مفهوم التجديد لدى الشيخ محمد رشيد رضا ويعيب عليه جنوحه كثيرًا إلى مدرسة ابن تيمية، وكراهيته التأويل، وطعنه في المشتغلين بالفلسفة من فلاسفة المسلمين.

وكان يقول بأن جنوح محمد رشيد رضا إلى مدرسة ابن تيمية، وجعله إمام المجددين فيما بعده من القرون، يخالف مفهوم الإصلاح الذي كان يدعو إليه، ويقلد فيه جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وهو المنهج الذي يقوم على أساس الجمع بين

علوم الدين والدنيا على الطريقة الأوروبية، وهذه الطريقة تناصر الفلسفة وعلومها، لأن حضارة أوروبا لم تقم إلا على أساس هذه العلوم .

وكان الأستاذ عبد المتعال الصعيدي يجاهر باستحالة الجمع بين السير في درب ابن تيمية والسير في درب الأفغاني ومحمد عبده، وهو المنهج الذي كان يؤثره بالاختيار ويسميه مذهب الإصلاح الحديث، وكان يقول:

«مَنْ يذهب في الإصلاح الحديث ذلك المذهب لا يصح أن يكون ابن تيمية إماما له فيه؛ لأنه كان رجعيًا في هذه الناحية، بل يكون الأجدر بالاقتداء في هذا الإصلاح الحديث من السابقين ابن رشد الحفيد، لأنه هو الفيلسوف الفقيه الذي جمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا، وآخى بين الدين والفلسفة، ولو قامت مدرسة ابن رشد بعده واستمرت كما استمرت مدرسة ابن تيمية لكنا أسبق إلى النهضة الحديثة من أوروبا، ولم نقع في الجمود الذي وقعت فيه مدرسة ابن تيمية».

ـ ١٢ ـ

وقد تمكن الشيخ عبد المتعال الصعيدي بذكاء بالغ من أن يبلور أسباب الجمود الديني في الأزهر في أربعة أسباب هي:

- التقيد في العقائد بمذهب الأشعرية.
- التقيد في الفروع بالمذاهب الأربعة المشهورة.
- أخذ العلماء بعقوبات على أمور غير محددة.
- المبالغة في تقديس أسلافنا وعلومهم.

والواقع أننا نعجب لقدرة الصعيدي على بلورة رأيه على هذا النحو حتى لو اختلفنا (نحن أو غيرنا) مع بعض جزئياته.

وفي مقابل هذا كان عبد المتعال الصعيدي يدعو إلى القضاء على هذه الأسباب

الأربعة من أجل أن تتسع عقول أهل الأزهر للبحث والنقد، ولا نقابل كل رأي جديد بالإنكار والاعتراض.

ولهذا فقد كان الأستاذ عبد المتعال الصعيدي يبني جوهر دعوته على المناداة بإطلاق الحرية في اختلاف الفرق الإسلامية في العقائد، وفي اختلاف المذاهب الفقهية في الفروع، وبألا يكون على علماء الدين أية عقوبات تحد من حريتهم، وتجعل للرؤساء سلطة واسعة عليهم، كما كان يدعو إلى الاقتصاد في تقديس الأسلاف وعلومهم، وألا نهاب أخذهم بالنقد النزيه، ووضع علومهم موضع البحث والتمحيص.

ـ ١٣ ـ

ويرتبط بمنهج الأستاذ عبد المتعال الصعيدي في نقد مناهج التعليم الأزهرية، وفي دعوته إلى التجديد، ما كان من سلوكه تجاه حركات الإصلاح الأزهرية في النصف الأول من القرن العشرين، وقد كانت دعوة الشيخ المراغي إلى إصلاح الأزهر أبرز هذه الدعوات، وكان الأستاذ عبد المتعال الصعيدي من مؤيدي الإمام المراغي، لكنه لم يكن يؤيده في كل أفكاره، وإنما كان يعارضه في بعضها، وكان يجاهر بهذه المعارضة، كما كان يجاهر بالتأييد.

ويذكر التاريخ للأستاذ عبد المتعال الصعيدي أنه تولى الرد على معارضي المراغي في خطته الإصلاحية في مقالات متسلسلة .

وقد فنّد الأستاذ عبد المتعال الصعيدي رأي الشيخ عبد الرحمن عليش الذي قال بأن الإسلام لا يطلب من أهله معرفة كل شيء في الحياة، منكرًا تدريس العلوم الحديثة، فأورد الصعيدي من آيات القرآن ما يوجب النظر في أمور الكون وما في السماوات والأرض من ظواهر طبيعية، وهي آيات مشتهرة لا ينكرها أحد.

كما رد ثانيا على هجوم الشيخ عليش الصارخ على تدريس الفلسفة .

و ثالث ما اهتم به الأستاذ عبد المتعال الصعيدي في الرد على الشيخ عليش هو تصديه لإنكار الشيخ عليش للاجتهاد مخافة أن يدعيه الجهلاء، وكان جوهر رد الصعيدي: إن هذا الخوف كان موجودًا في عهد أبي حنيفة، والشافعي، ومالك، من كبار المجتهدين، ولم يوصد باب الاجتهاد بسببه.

ـ ١٤ ـ

قلنا إن الأستاذ عبد المتعال الصعيدي لم يؤيد الشيخ المراغي على طول الخط، ومن المفيد إذن أن نناقش بعض ما اختلف فيه مع المراغي.

الواقع أن الأستاذ عبد المتعال الصعيدي لم يكن يرحب بتحبيذ الشيخ المراغي لدراسة بعض الكتب القديمة، وإنما كان الصعيدي يدعو إلى تأليف معاصر يضعه الأساتذة، كل عالم في مادته لتتجدد المحاضرات العلمية بتجدد التدريس، على أن تكون كتب التراث مرجعًا أساسياً، لا أن تكون وحدها مجال التدريس.

وكان الإمام المراغي قد نوه في مذكرته الإصلاحية بما في الكتب القديمة من بعض المزايا، فهي تدرب الطلاب على البحث وتمنحهم طول الباع في الجدل، وتفرض عليهم التعمق في فهم الكلمة ومدلولها ومنطوقها ومفهومها، إذ ليست كلها مماحكات لفظية تدور حول المتن في الشرح والحاشية والتقرير، كما أنها تمثل حقبة طويلة من تاريخنا لا يجوز لنا أن ننساها أو نهملها.

ـ ١٥ ـ

وقد كان الأستاذ عبد المتعال الصعيدي يتمتع برؤية متوازنة تدرك جانبي الحقيقة، وهو على سبيل المثال يستطرد إلى ذكر عناصر رؤيته بعد ما لخص فكرة الشيخ المراغي فيقول:

«... ولكن تقديرنا لمثل هذه الكتب لا يمكن أن يغير رأينا فيها، إذ لا تصلح أساسًا للدراسة في الأزهر، لأن بها من العيوب أضعاف ما بها من المنافع، ولو لم يكن فيها إلا التربية على القديم دون التجديد لكفي، ومع هذا لا نمانع في أن يدرس الطالب المنتهي كتابًا منها على الطريقة الأزهرية القديمة، حتى يكون ذا استعداد لفهمها، وحتى يمكنه أن يستخلص منها ما بها من الفوائد، وبهذا لا تهمل كل الإهمال».

ـ ١٦ ـ

وعلى الرغم من مناداة الأستاذ عبد المتعال الصعيدي بالتجديد في طرق التعليم الأزهرية فإنه كان معجبًا ومقدرًا لطريقة الدراسة الأزهرية القديمة، وكان يثني على ما تنتجه من التعمق في الدرس، وطول الباع في الجدل.

و يشير الأستاذ عبد المتعال الصعيدي إلى أن هذه المزية كانت تتأتي من خلال مشاركة الطلاب للأستاذ في الاستعداد للدرس الجديد، إذ كان المدرس ينبه الطلاب حين ينتهي من درسه إلى درس الغد، ليستعدوا له أيضا، فكانوا يجلسون جماعات جماعات ويأخذون في مطالعة دروس الغد إلى أن يمضي زمن طويل من الليل، ومنهم مَنْ كان يتعمق في فهم الدرس مثل أستاذه أو أكثر، وهنا يكون الدرس درس أساتذة لا درس أستاذ وطلاب، وهنا يدور الجدل بين الأستاذ وطلبته، ويحتدم النقاش حتى يقتل الدرس بحثًا ونقاشًا».

....

و يشير الأستاذ عبد المتعال الصعيدي أيضا إلى فضل غير مشهور لهذه الطريقة، وهو دورها في تنمية الاستقامة الخلقية فيقول:

«وكان لهذه الطريقة أثرها الخلقي في استقامة الطلاب وانصرافهم عن كل شيء

إلا العلم، ولهذا كان الناس ينظرون إليهم بعين التبجيل، ولا يبخلون عليهم بما يستحقونه من التعظيم، أما الآن فلا أثر لهذه الطريقة بالأزهر، إذ انصرف الطلاب إلى سواها».

ـ ١٧ ـ

كذلك عارض الأستاذ عبد المتعال الصعيدي الأستاذ المراغي حين ألف لجنة الفتوى بالأزهر وحدد لها محيط الإفتاء، بأن فرض أن تجيب اللجنة طالب الفتوى على المذهب الفقهي الذي يحدده المستفتي، فإذا لم يعين مذهبا خاصا أجابته بحكم الله المؤيد بالأدلة من غير تقييد بمذهب من المذاهب الشرعية.

وقد ظل الأستاذ عبد المتعال الصعيدي يكرر الدعوة إلى التفكير الحر بعيدًا عن نصوص الكتب والجدل مع هذه النصوص، وقد ضرب الصعيدي مثلًا بابن خلدون كسلف عظيم من علماء الإسلام، في دعوته إلى البحث الحر دون التقيد بألفاظ الكتب ومحاولة الاعتراض عليها ثم الجواب بما يدفع الاعتراض، وقد فصل اعتراضه على ما سماه «كتب الأعاجم»، داعيًا إلى طريقة القدماء من أمثال الغزالي في الاستفاضة، والإمتاع والاستقصاء، ومؤثرًا أن يكون الطالب فسيح الآمال، متشعب المعارف، حيث يكون الكون الشاسع ميدان بحثه، لا أن تضيق عليه الحلقة بين المتون والشروح.

ـ ١٨ ـ

ربما جاز لنا الآن أن ننتقل إلى بعض آراء الشيخ عبد المتعال الصعيدي في الفقه وأصوله بعدما تبينا ملامح فكره في التجديد التربوي في التعليم الأزهري، وما يرتبط به من حرية الفكر والتفكير.

تحدث الأستاذ عبد المتعال الصعيدي في كتابه «في ميدان الاجتهاد» بعمق عن

ضرورة الاجتهاد في مسائل التشريع، بعد أن أوصدت القرون المتأخرة بابه، وأفتى علماؤها بوجوب التقليد نظرًا لغياب المجتهد، فبين أن باب الاجتهاد كان مفتوحًا في عهد السلف، وفي ميدانه ظهرت آراء السابقين من أئمة المذاهب الدينية.

وكان الأستاذ الصعيدي يكرر القول بما كان يعتقده من أن إنشاء المدارس الفقهية الرسمية كان سببًا في إقفال باب الاجتهاد، بل في قبر المذاهب الفقهية عدا المذاهب الأربعة، وقد كانت هناك مذاهب كثيرة لأهل السنّة والجماعة، بقي بعضها إلى القرنين السابع والثامن، ومن هذه المذاهب :

- مذهبا البصري والثوري ولم يعمل بهما أمدًا طويلًا لقلة أتباعهما.
- مذهب الأوزاعي وقد بطل العمل به بعد القرن الثاني للهجرة.
- مذهب أبي ثور وقد بطل العمل به بعد القرن الثالث.
- مذهب ابن جرير الطبري وقد بطل العمل به بعد القرن الرابع.
- مذهب الظاهري وقد طال أمد بقائه حتى القرن الثامن.

ـ ١٩ ـ

لعل أهم الآراء الفقهية التي انفرد بها الأستاذ عبد المتعال الصعيدي وخالف بها علماء عصره هو رأيه في عقاب المرتد، وهو الرأي الذي طوره وبلوره في كتاب كامل يحمل عنوان «الحرية الدينية في الإسلام»، الذي يعترف فيه بأنه يذهب مذهبا انفرد به في حكم المرتد، ويتلخص مذهبه في القول بأن المرتد لا يكره على الإسلام بقتل ولا بسجن ولا بنحوهما من وسائل الإكراه، وإنما يُدعى إلى العودة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، كما يدعي غيره ممن لم يسبق له إسلام، بهذه الوسيلة أيضا، فإن أجاب فبها وإلا لم يكن جزاؤه إلا العقاب على ردته في الآخرة، وقد نفي الإكراه على الدين نفيا عاما صريحا، في قوله تعالى : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ

مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ [البقرة:٢٥٦] ، وهذا نفي للإكراه مطلقا فيجب أن يدخل في حكم هذه الآيات مَنْ أسلم ثم ارتد، كما يدخل فيه مَنْ لم يسلم أصلا.

وقد رد عليه الشيخ عيسى منون في مقالات نشرها بمجلة «الأزهر» حينذاك .

ـ ٢٠ ـ

أما ثاني أهم آرائه الفقهية المنفردة فهو رأيه القائل بأن الحدود التي أشار إليها القرآن الكريم هي أقصي عقوبة فيما فرضت فيه، ومن ثم يجوز العدول عن هذا الحد (الذي هو الطرف الأعلى للعقوبة) إلى ما هو أقل منه من عقوبات رادعة.

وقد صادف الأستاذ عبد المتعال الصعيدي مشكلة وظيفية علمية كبري بسبب هذا الرأي الذي أبداه في مسألة الحدود، وتفاصيل القصة حسبما يرويها الدكتور محمد رجب البيومي أن جريدة «السياسة» الأسبوعية كانت قد فتحت (١٩٣٧) صدرها لمناقشة مسألة الحدود في الإسلام، وغلا بعض الكتاب فردد ما يقوله المفتونون بالمستشرقين عن قسوة الحدود كقطع يد السارق، ورجم الزاني، بينما جوبه بردود حاسمة تنفي مظنة هذه القسوة، لأن الشرائع الوضعية جميعها توجب القصاص، وتحكم بالقتل على القاتل، كما تحكم به على مَنْ يتجسس لحساب دولة أخري، أو ينهض بثورة مسلحة ضد الحاكم، فإذا كان حكم الإعدام مشروعا في حالات كثيرة دون أن يزعم أحد أنه مثل للقسوة المفرطة، فإن الحكم بالرجم وقطع اليد مشروع إذا وجه لمن يستحقه!

ـ ٢١ ـ

وفي خضم هذه المحاورات والمجادلات بدا للصعيدي أن يشير إلى رأي في الحدود، و قد احتاط كل الاحتياط، وتحسب كل التحسب ، وأعلن أنه يعرضه للبحث فحسب، لأنه يحتمل الصواب والخطأ، وقد قال هو نفسه عن رأيه الجديد:

«وإني ألجأ إلى عرضه على الناس رأيًا لا يظهر فيه ترجيح لناحية إثباته أو نفيه، بل أتركه لمن يتناوله بالبحث من أهله على صفحات السياسة، وقد أخوض في ذلك مع مَنْ يخوضون فيه إذا رأيت ما يستدعي هذا مني، ولا أريد إلا أن أعرض فكرة سنحت في النفس لأعرف رأي الباحثين فيها وأعلم صوابها من خطئها».

«أما لباب الفكرة فهي أن قول الله ﷻ : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٨] ، وقوله تعالى : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور:٢] ، هذان الأمران الكريمان قد يكونان للإباحة لا للوجوب، بمعني أن يكون القطع في السرقة أقصي عقوبة فيها، فيكون الطرف الأعلى في حدها، ويجوز العدول عنه في بعض الحالات إلى عقوبات أخرى رادعة، وإن كانت أخف منه، ثم استشهد بعدة وقائع عدل فيها عن تنفيذ حد السرقة لبعض الظروف».

كان هذا هو جوهر ما عرضه الأستاذ عبد المتعال الصعيدي لتبين خطأه من صوابه، وواضح من كلامه أنه لم يكن يجزم بالصواب، بل يتقدم مستفهمًا مستوضحاً، وإذا كان الصواب قد جانبه فإن من الحكمة أن يبين له وجه الخطأ كما طلب، لكن الغيرة على الدين وعلى التراث الفقهي كانت لا تزال في ذروتها، وكان العلماء يؤمنون بما علموا، وبما تعلموا ، ويجاهدون في الدفاع عنه، وهكذا فإن لجنة علمية شكلت لدحض المقال، وهذا هو الواجب ! على حين شكلت لجنة أخرى من كبار أساتذة الأزهر والقائمين على أمره لمحاكمة عبد المتعال الصعيدي، وانتهت هذه اللجنة (العلمية الإدارية كما ينبغي أن توصف) إلى أن يحرم من الترقية خمس سنوات، وأن ينقل من التدريس بكلية اللغة العربية بالقاهرة إلى القسم العام بطنطا !

على أنه مما يخفف الألم في نظري أن الحكم كان بالأغلبية لا بالإجماع.

ـ ٢٢ ـ

و قد علق الدكتور محمد رجب البيومي على هذا الحكم بما يعتقده من أن الرد الفقهي بإيضاح وجه الخطأ كان كافياً، لأن الباحث مستفهم يطلب وجه الصواب، ولم يكن مصرا على رأي ارتآه.

وقد نشط فريق من علماء الأزهر لنقض ما كان يراه الأستاذ الصعيدي، وكان من أقوى الردود ما نشره الأستاذ محمد الخضر حسين بمجلة الهداية الإسلامية، حيث جزم بأن الأمر للوجوب الدائم لا للندب، وأتى بأدلة قاطعة من منطوق كتاب الله، وأقوال الكبار من أهل التفسير!

وكان صدور الحكم بمنع الترقية، والنقل إلى القسم العام بطنطا مصدر ألم شديد للشيخ الصعيدي، ولكن هذا لم يحل دون مشاركته الرأي في المسائل الدينية على صفحات الجرائد والمجلات.

وقد واصل إنتاجه العلمي بل ازداد هذا الانتشار وانتشر وكانت مجلتا «الرسالة» و«السياسة» الأسبوعية وجريدتا «البلاغ» و«كوكب الشرق» ترحب جميعًا بمقالاته.

ثم أعيد الأستاذ الصعيدي ثانية إلى الأستاذية في كلية اللغة العربية بالقاهرة، فاستأنف نشاطه العلمي.

ـ ٢٣ ـ

كتب الأستاذ عبد المتعال الصعيدي فصلًا عن الحجاب في الإسلام (كان هذا اللفظ وقتها يطلق على ما نسميه الآن : النقاب) ، وذلك في مناسبة اعتناق بعض زعماء المنبوذين في الهند دين الإسلام لمناداته بالمساواة، ووقوف أتباعهم مترددين أمام ما يدعونه من فرض الحجاب على المرأة المسلمة، واهتمت مشيخة الأزهر

حينئذ بتصحيح الرأي فأصدرت فتوى قالت فيها بإجماع الأئمة على أن الوجه والكفين ليسا بعورة، وليس على المرأة من بأس أن تزاول أعمالها خارج بيتها، وأن تمارس مهنا لكسب قوتها على شريطة ألا تظهر ما يثير العاطفة من جسمها.

وقد انتهز الشيخ عبد المتعال الصعيدي هذه الفرصة ليشير إلى أن المرأة المسلمة في حل من هذا النقاب الذي فرض عليها في دينها، فإذا شاءت سترت وجهها، وإذا شاءت تركت وجهها بلا نقاب.

ـ ٢٤ ـ

أما كتب الأستاذ عبد المتعال الصعيدي وكتاباته في علم المواريث فكانت بمثابة رد فعل على ما دعا إليه بعض الكتاب من مساواة المرأة بالرجل في الميراث، وهنا وضع الصعيدي كتابًا مستقلًا عن الميراث في الإسلام وفي غيره من الشرائع المعاصرة، فقام بدراسة مقارنة تثبت عدالة هذا النظام وعبقريته.

ويروي الدكتور محمد رجب البيومي أن هذا الكتاب لقي رواجا، وتعددت طبعاته في زمن يسير، إذ صادف وعيا حيا من القراء، وقد بدأه المؤلف بتفصيل شاف لأحكام الميراث في الفقه الإسلامي، وانتقل إلى المواريث في الشرائع القديمة، فتحدث عن قوانين المصريين القدماء، والعرب في الجاهلية، واليونان في أثينا، والرومان في إيطاليا، واليهود في كتبهم المقدسة.

كما تناول المواريث في الشرائع الحديثة، ومن بينها القانون الفرنسي.

وقد امتد نطاق المقارنات التي أوردها الصعيدي فشمل:

- حق الإرث .
- التسوية بين الذكور والنساء .
- التسوية بين الأخوة والأبوين .

- التسوية بين الأخوة .
- حلول أولاد الوارث محله .
- توريث ولد الزنى .
- توريث المختلفين في الدين .
- حجب البنات بالأبناء .
- حجب الأصول والحواشي بالبنات .
- حجب الحدود بالأخوة .
- حرمان الحمل من الإرث .
- إباحة مال مَنْ لا وارث له .
- تعليق الإرث على القضاء!

وقد نجح الشيخ الصعيدي في أن يقدم لكل مسألة من هذه المسائل تعليلها العقلي، ودليلها الشرعي من نصوص الكتاب والسنّة مقارنة بغيرها من المواريث الوضعية.

ـ ٢٥ ـ

وبالإضافة إلى هذا كله يذكر للشيخ عبد المتعال الصعيدي أنه .

- نشر بحثا شافيا عن سر تحريم لحم الخنزير في عددين من مجلة «الرسالة» صادف قبول المنصفين، وترجمه أحد الباحثين إلى اللغة الأوردية ليقرأه المسلمون في الهند.
- نشر رسالة مهمة عن فدية الإفطار وجعل عنوانها: «اجتهاد جديد في آية ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ﴾ مطبعة الاعتماد بمصر (١٩٥٥) .
- نشر مقالًا شهيرًا بعنوان: «نعم.. نملك تحريم تعدد الزوجات» مجلة الرسالة ١٩٤٨م.

ـ ٢٦ ـ

وفي ميدان علوم النحو كان الأستاذ عبد المتعال الصعيدي بمثابة المعلم المفكر والمؤلف المبدع، وقد ذكرنا في بداية هذا الباب أنه ألف كتابا في النحو في بداية عمله بالتدريس، ولاشك أن النحو بقوانينه ومنطقه كان بمثابة التحدي المبكر أمام هذه العقلية المنهجية القادرة على إعادة التنظيم وإعادة الصياغة.

وقد ظل تعليم النحو يشغل بال الأستاذ عبد المتعال الصعيدي منذ بدايات حياة العلمية، وقد كتب مقالًا متميزًا نشره في «المجلة الأزهرية» (١٩٢٤) تحت عنوان «نظرات في متن الأجرومية» وقال فيه:

«إننا لا نزال ندّرس متن الأجرومية للمبتدئين في النحو، على حين أن غيرنا من رجال التعليم في مصر وغيرها قد هجروه من عشرات السنين، فقد جاء في كثير من أبوابه مجملًا إلى حد يضيع معه الغرض المقصود من تدريسه، هذا إلى ما في تعليم المبتدئين بطريقة شرح المتون من تصعيب، لأنه يصرف المعلم عن اختيار أسهل الطرق لفهم مسائل العلوم ... ».

ثم أتاح الزمن للشيخ الصعيدي الفرصة في أن يبلور فكره النحوي في كتابه «النحو الجديد» وفيه كتب عدة فصول يرد بها على مشروع لجنة القواعد العربية في تيسير النحو، وامتد ببحثه إلى تقييم كل ما كتب عن النحو في مجال التيسير المعاصر، فناقش آراء الأساتذة: إبراهيم مصطفي، وأمين الخولي، وأعضاء لجنة التيسير، مضيفا آراءه الخاصة في تذليل النحو.

ـ ٢٧ ـ

وفي مجال الدراسات الأدبية كان الأستاذ عبد المتعال الصعيدي من أصحاب الرؤى النقدية المتميزة التي تبلورت في دراسات قيمة، وقد اشتهر بثلاثة مؤلفات ممتازة عن ثلاثة من الشعراء العرب المتميزين وهم:

- عدي بن زيد .
- أبو العتاهية .
- الكميت بن زيد الأسدي .

وقد كانت كتاباته عن هؤلاء الشعراء مبلورة لرأيه الذي انفرد به في أمارتهم على عصورهم مخالفًا بذلك آراء النقاد ومؤرخي الأدب من تفضيل امرئ القيس، وأبي نواس، وشعراء النقائض على هؤلاء الثلاثة.

وقد صور الأستاذ عبد المتعال الصعيدي بحوثه ودراساته الأدبية على أنها محاولة لإثبات التفوق في الاجتهاد يحاول أن يعوض بها بعض مأساته وإحباطه بعدما عوقب على اجتهاده الفقهي، وقد قال في مطلع إحدى دراساته الأدبية:

«إن في الأدب اجتهادا لم يغلق بابه كما أغلق في الفقه والعلوم الشرعية، ولهذا امتازت بحوثه وتدفقت في غزارة حتى صار شغل الأستاذ في معهده، والطالب في مدرسته، ولو أن غير الأدب من العلوم كان له حظ الاجتهاد لم يصر إلى هذا الجمود الذي صرف الناس عنه، وجعلهم يكرهون النظر فيه ويخشون ما يصيبهم من العنت إذا خرجوا عن مألوفه».

ـ ٢٨ ـ

والواقع أن الأستاذ عبد المتعال الصعيدي كان صاحب رؤية خلقية متميزة فيما يتعلق بنقد الشعر والشعراء، وقد كان يصرح بأن مقياسه في تفضيل كاتب على كاتب يتعلق بالحرص على شرف الغرض، وسمو المعني، إذ أنه كما ذكر لا يرى لقضية الفن للفن وجها للإصابة :

« فالشاعر إنسان ممتاز ذو رسالة خلقية ينهض بالقيام بها مبشرًا ذوي النفوس الفاضلة بما يهتف من معان إنسانية ترتفع بالقارئ إحساسًا وإدراكاً، أما الذين يرضون شهوات النفس بالحديث عن الخمر والهجاء والغزل الفحش، فهم ـ في

رأيه ـ لا يسمون إلى مرتبة ذوي القيم من الشعراء».

وقد كانت للأستاذ عبد المتعال الصعيدي معركة مبكرة مع مخالفيه كانت بمثابة إرهاص للمعارك التي دارت بعد هذا حول فكرة الفن للفن، (وإن لم يكن النقيض وقتها أن الفن للمجتمع) وإنما كان الصراع بين المقاييس الخلقية التي كان الصعيدي حريصًا على الإعلاء من شأنها، وبين ما نقله المعاصرون عن كتب السالفين من أن الشعر شعر في حد ذاته، وأن الشاعر ليس نبيا أو واعظا، وقد اضطر الأستاذ عبد المتعال الصعيدي أن يكتب مقالًا تحت عنوان «مقاييس الشعر» نقل فيه من أقوال بعض السالفين ما يؤيد رأيه، وكأنه يقول لمعارضيه إنه يمثل امتدادًا لمدرسة ذات جذور فيما مضي من النقد العربي.

ـ ٢٩ ـ

وقد كتب عبد المتعال الصعيدي في مجلة الرسالة (١٩٣٦) يؤكد على فكرة المضمون الخلقي للأدب ضاربًا المثل بما أجراه من موازنة على أساسها، وكانت نتيجة الموازنة الانتصار لعدي بن زيد على امرئ القيس، والانتصار لأبي العتاهية على أبي نواس، وفي هذا المجال قال الأستاذ عبد المتعال الصعيدي ما نصه:

«وقد وضعنا للشعر مقياسا عاما يتفاضل فيه القول باعتبار نبل أغراضه وشرف مقاصده، قبل أن يتفاضل بجمال ألفاظه ومعانيه، ووازنا بهذا المقياس بين امرئ القيس، وعدي بن زيد في كتابنا «زعامة الشعر الجاهلي» وبين أبي العتاهية، وبشار، وأبي نواس فيما كتبناه بمجلة «الرسالة» عن أبي العتاهية، فخرجنا من هذا المقياس بتفضيل عدي بن زيد على امرئ القيس، وتفضيل أبي العتاهية على أبى نواس، ولكن جمهرة أدبائنا لا يوافقوننا على هذا المقياس، وينكرونه علينا أشد الإنكار، وهم معذورون لأقوال يعرفونها، وقد حملني ذلك على تقييد كل ما أراه يؤيد وجهتي في مطالعاتي».

- ٣٠ -

ويلخص الدكتور محمد رجب البيومي وجهة نظر الأستاذ عبد المتعال الصعيدي بطريقة أخرى فيقول:

«لقد درس الأستاذ (أي عبد المتعال الصعيدي) عدي بن زيد لطلابه في تخصص المادة بالأزهر، مقارنا بامرئ القيس، فأورد ما اتفق فيه الشاعران من النشأة، فامرؤ القيس أمير، وعدي أبوه ملك، وكلاهما ترفع عن المديح والاتجار بالشعر، وكانت له منزلة في عشيرته، ولكن عديا نشأ في فارس وشاهد من ألوان الحضارة ما لم يشهد امرؤ القيس، ودرس الأديان واعتنق النصرانية فأمدته بمعانٍ طيبة في الرحمة والعدالة وترقب المصير، واتساع الأفق، إذ كان ينظر إلى الكون نظرة شاملة يتحدث عن المبدأ والعاقبة، ويؤدي رسالة الحكيم الناصح للإنسانية كيلا تنزلق إلى مهاوي الرذيلة».

«واتساع النظرة الإنسانية في هذا الوجود امتياز يحسب لصاحبه، لاسيما إذا كان ناصح ملوك، وأستاذ فكر، ولعدي في التذكير بالنعيم الغابر، والتحذير من الهرج الزائف درر ينقح بها العقل المتأمل».

«وكانت الأغراض في رأي الصعيدي موضع تبريز أبي العتاهية، إذ ساعد على نشر الثقافة الإسلامية بما ضمّن شعره من روائع الحكم والدعوة إلى الارتفاع عن مهابط النفوس، والبعد عن العبث والمجون اللذين كانا أبرز سمات بشار وأبي نواس، هذا إلى سهولة ميسرة تجعل شعره مقتحمًا صوالا على النفوس، وهكذا انتصر الكاتب لمنحاه في إصرار وتأكيد».

«وإذا كان عدىّ يمثل الزعامة الشعرية في العصر الجاهلي عند الصعيدي، وكان أبو العتاهية يمثل الزعامة الشعرية في مطلع العصر العباسي، فقد اختار الناقد شاعرًا

من طراز صاحبيه يمثل الزعامة الشعرية في العصر الأموي، هو الكميت بن زيد الأسدي، حيث كرس شعره لمحاربة الفجرة من الطغاة، والظلمة من الحاكمين، ونأي بالشعر على أن يكون موطنًا للاستجداء في مدائح تساق إلى غير مَنْ يستحق».

«وإذا كان الذائع أن جريرًا والأخطل والفرزدق قد تسنموا زعامة الشعر في عهد بني مروان، فإن الصعيدي ينكر هذه الزعامة على قوم أخذوا يهبطون في النقائص إلى دركة السفلة من الرعاع، حين تقاذفوا .... متحدثين عن معانٍ هابطة تشين صاحب البيان، فالغلو في الهجاء لدي هؤلاء جعلهم شتامين منحدرين، بحيث تصبح أشعارهم معرة للأدب العربي إذا ترجمت إلى لغة غير لغة العرب».

«أما الكميت فقد دافع عن فضائل الأمة الإسلامية، ودعا إلى إقامة العدل وإشاعة الحرية، وتوجه بمدائحه إلى قوم لا يملكون الجزاء المادي، كما يتوجه أرباب المآرب عن قصد مريب، لقد توجه بمدائحه إلى آل بيت رسول الله، يذكر فضائلهم ويرجوهم لساعة حاسمة تطوي دياجير الظلم، وتنشر أنوار الحق».

«وقد استوفي الصعيدي في حديثه عن الشعراء الثلاثة جانب الاستشهاد، لأن دواوين هؤلاء الشعراء تفيض بما ينشد من مُثل، ولعل مما يؤيد وجهة الناقد، أن هؤلاء الثلاثة ليسوا نظامين يسوقون العظة بألسنة الخطباء، لكنهم في صميم مواهبهم شعراء أصلاء، وما انحدر بالشعر المثالي عن أوجه غير نفر من النظامين نسجوه نسج المتون العلمية، فجاء جامد الروح، ميت النسيم، أما عديّ، وأما الكميت، وأما أبو العتاهية فشعراء أصلاء».

ـ ٣١ ـ

ويروي الدكتور محمد رجب البيومي أن عددًا من كبار الأدباء والنقاد اختلفوا مع رأي الأستاذ الصعيدي في هذا الصدد، وقد كان من أبرزهم الدكتور زكي

مبارك، والأستاذان محمود الخفيف، ومحمد على غريب، وأن النقاش امتد حول مجال الترجيح عند الصعيدي على صفحات المجلات دون أن يرجع الصعيدي عن وجهته، إذ عمد بهذا المقياس إلى دراسة أبي العتاهية، ليفضله على زميليه الكبيرين بشار وأبي نواس، فعرض إلى مظاهر التجديد الشعري في مطلع العصر العباسي من ناحية الأغراض والمعاني والتراكيب، ليثبت فضل أبي العتاهية.

وقد ظل الأستاذ عبد المتعال الصعيدي معتزًا بمقياسه الخلقي للعمل الأدبي، وفي رأيي المتواضع أن الصعيدي كان صاحب الفضل الأوفى على المعركة الأدبية التي دارت حول قيمة الأدب الجاهلي بين الأستاذ أحمد أمين و الدكتور زكي مبارك على صفحات مجلتي الرسالة والثقافة.

لكن أحدا لا يعترف بالفضل في مصر إذا كان صاحب الفضل أزهريا.

ـ ٣٢ ـ

ويتصل بنشاط الأستاذ عبد المتعال الصعيدي في دراسات الشعر ما كتبه من رد على الدكتور طه حسين في كتابه «الشعر الجاهلي» وقد صدر بعنوان «نقد كتاب في الشعر الجاهلي» عن مطبعة الكمال بطنطا (١٩٢٥).

وقد أثبت الأستاذ عبد المتعال الصعيدي القصد الجنائي الذي حاولت النيابة العامة نفيه، كما رد على قول رئيس النيابة «أن الكتاب يصور رأي عالم باحث، ومن حقه أن ينشره بين الناس»

وجاء رد الصعيدي المفحم والمقنع:

«إن الكتاب لم يُنشر بين المثقفين ليعرفوا حقه من باطله، لكنه قرر على طلاب لم يبلغوا مبلغ الحكم الأدبي بالصواب والخطأ، وهؤلاء يتطلبون كتبًا صحيحة الأفكار، بريئة من الإرجاف بالمقررات الدينية والتاريخية، فإذا ألقي أستاذ على طلبته

قضايا لم تثبت صحتها فهو متهم!

- ٣٣ -

كذلك تشمل دراسات الأستاذ عبد المتعال الصعيدي الأدبية كتابه «مدرسة أبي تمام بين قدامي المولدين والمتأخرين» .

وفي علوم البلاغة والنقد الأدبي قام الأستاذ عبد المتعال الصعيدي بجهد ملموس في إعادة تقديم علوم البلاغة العربية القديمة في لغة عصرية.

ويذكر له في هذا المجال أنه وضع كتابه «البلاغة العالية» وقد جمع فيه بين تاريخ البلاغة وأهم مسائلها، وتبدو فيه سمات الصعيدي التي تجمع بين الإحاطة بعلوم الأوائل والاجتهاد في عرضها.

وكذلك شرح الصعيدي كتاب «الإيضاح» للقزويني في أربعة أجزاء، كما حقق كتاب «سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجي.

وعلى الرغم من أن الدكتور محمد رجب البيومي يبدي إعجابه بشرح الصعيدي لكتاب الإيضاح وقد سماه «بغية الإيضاح»، ويراه قد استوفى ما يتطلب من الشرح والنقد والتعليق والأسئلة الهادية إلى تطبيق المادة، فإنه يأخذ على الأستاذ عبد المتعال الصعيدي ما ذكره في مقدمة الكتاب من أن كتاب الإيضاح ينتمي في البلاغة إلى مدرسة عبد القاهر، وهو يخالفه في هذا الرأي كل المخالفة، لأن الكتاب يسير في ضوء المفتاح للسكاكي، وإن اعترف القزويني بأنه رجع إلى عبد القاهر وأفاد منه.

كذلك يخالف الدكتور محمد رجب البيومي الشيخ الصعيدي فيما أورده في مقدمة كتابه من أن السكاكي يعد إلى حد ما من تلاميذ مدرسة عبد القاهر، لكنه كان ناقدًا ولم يكن أديباً، إذ لو كان السكاكي من مدرسة عبد القاهر ما تحجرت البلاغة هذا التحجر الذي وضح في كتب المتأخرين ممن داروا في فلك السكاكي.

ـ ٣٤ ـ

ويتعجب الدكتور البيومي من أن يخلع الصعيدي على السكاكي صفة الناقد بمعناه الأدبي المعروف لدي الجرجاني والآمدي وابن الأثير وعبد القاهر وابن رشيق وأضرابهم من مشاهير النقاد! والفارق بين هؤلاء والسكاكي بعيد بعيد، لاسيما وقد اعترف الصعيدي في المقدمة نفسها «بأن العجمة غالبة على أسلوب السكاكي، وهو ذو غموض وتعقيد وضعف في التأليف، ومفسد لملكة البلاغة، وضرره أكبر من نفعه».

ويستطرد الدكتور رجب البيومي فيقول: «أجل سجل الصعيدي هذه المآخذ كلها على كتاب «المفتاح» للسكاكي، واعترف بها في وضوح، فكيف يعد السكاكي مع ذلك كله إلى حد ما من مدرسة عبد القاهر؟».

ويرى الدكتور البيومي أن الأستاذ عبد المتعال الصعيدي أنصف كتاب «سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجي الذي هو أقرب إلى البلاغة الناصعة من كتابي المفتاح والإيضاح، وقد قدم الصعيدي كتابه في تحقيق كتاب الخفاجي بمقدمة حافلة، لكنه قال في خاتمتها إن أسلوبه العلمي أقرب إلى أسلوب المتأخرين من أسلوب عبد القاهر، فإذا كان الصعيدي يقصد بالمتأخرين تلاميذ السكاكي ومَنْ ترسموا خطواته ففي كلامه نظر يحتمل النقاش، لأن ابن سنان إذا لم يرزق ديباجة عبد القاهر فقد رزق ذوقه، وحسن اختياره، وبعده عن التعقيد والغموض، فهو ينادي الجرجاني من مكان قريب.

وللأستاذ الصعيدي مؤلفات أخرى مهمة في علوم البيان القرآني والبلاغة والنقد نذكر منها:

- «النظم الفني في القرآن» وقد طبع في مكتبة الآداب بمصر.

- «الأقوال الحسان في حسن نظم القرآن» وقد طبع مرتين في عامين متقاربين حيث طبع في مطبعة المعارف بطنطا (١٩٢٤) وفي المطبعة العمومية بطنطا (١٩٢٦).

ـ ٣٥ ـ

امتدت جهود هذا العالم الفذ الأستاذ الصعيدي إلى ميدان التاريخ الإسلامي حيث كتب :

- مؤلفًا عن رسول الله ﷺ .
- مؤلفًا عن الدولة الإسلامية في عهد الخلافة الراشدة .
- «تاريخ الجماعة الأولى للشبان المسلمين برئاسة النبي ﷺ (وهو مجموعة دروس ألقاها) المطبعة السلفية بمصر .
- «تاريخ العرب في الجاهلية وصدر الإسلام» المطبعة المحمودية بمصر (١٩٣٤) .
- «السياسة الإسلامية في عهد النبوة» دار الفكر العربي بمصر (١٩٦٤) .
- «السياسة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين» دار الفكر العربي بمصر (١٩٦١) .
- «شباب قريش في بدء الإسلام» دار الفكر العربي بمصر (١٩٦٠).

ـ ٣٦ ـ

أما أبرز جهد للصعيدي في كتابة التاريخ الإسلامي فهو كتابه الرائع «القضايا الكبرى في الإسلام» الذي أشرت إليه وإلى انحيازي إليه في مطلع هذا الباب ، وفي رأيي أنه بهذا الكتاب قدم للحضارة الإنسانية ، لا للإسلام فحسب ، عملا علميا متفردا ناقش فيه أعظم القضايا في التاريخ الإسلامي الممتد ، مبتدئًا بعهد الرسالة النبوية، ومنتهيًا بقضية الشعر الجاهلي في العصر الحديث.

وفي كثير من فصول هذا الكتاب ظهرت ملكاته النقدية و الناقدة التي وصلت

إلى ما لم يصل اليه أحد من معاصريه .

ففي قضية بني قريظة ناقش مَنْ عارضوا الحكم من المستشرقين حين رأي سعد ابن معاذ أن يقتل الرجال، وتُقسم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء، إذ ذهبوا إلى أن الحكم يتسم بالقسوة، وقد قال المؤرخون: إن سعدًا نزل على حكم التوراة التي يدينون بها، وهي تقضي بذلك، فليس لهم أن يخرجوا عن قانون يؤمنون به، وهو قول له وجهة نظره، لكن الصعيدي ذكر تعليلًا قويًا حين نص على أن بني قريظة ليسوا أسري حرب، حتى نرمي الحكم بالقسوة، ونميل إلى جانب العفو، لأن الرسول عفا عن بني النضير وبني قينقاع، وهم زملاؤهم دون أن يتعرضوا للقتل، ولم ينفذ فيهم حكم التوراة.

أما بنو قريظة فقد قارفوا الخيانة العظمي حين تحللوا من عهودهم السياسية وانضموا إلى الأعداء، فلم يكونوا في المبدأ أعداء يعاملون معاملة الأسرى، لكنهم خونة أمّنهم المسلمون لما بينهم من العهود فانتهزوا محنتهم الخطيرة وغدروا بما اتفقوا عليه، وكل الشرائع الوضعية تنفذ حكم الإعدام في الخائنين.

وفي حادث الإفك ذهب الأستاذ عبد المتعال الصعيدي إلى أن رسول الله لم ينفذ حد القذف على أحد، لأن التشريع لا يعمل به في الأحداث الماضية، بل يعمل به فيما يستجد، ونقل نصوصًا عن الماوردي وابن حجر تدل على أن الحد لم يقم، لأن الحد لا يجب إلا ببينة أو إقرار، ولم يثبت أحد هذين! فالأراجيف قد انتشرت، وعزيت إلى أناس فأنكروا وحامت الشبه عليهم فتنصلوا ولم يقروا، فإذا أضيف إلى ذلك أن حكم القذف لم يكن مقررًا من قبل، فوقف العقوبة متوقع! وقد نص عليه جماعة من الأئمة.

ـ ٣٧ ـ

من حسن الحظّ أن المكتبة الأزهرية تحتفظ بنسخ كثيرة من مؤلفات الأستاذ عبد المتعال الصعيدي ، وهكذا أمكن الإشارة إلى بعض تواريخ صدورها وطبعاتها في

هذه البيليوجرافيا التي ننقلها بتصرف عن جهد مشكور قام به أبو الفداء سامي التوني لمشروع لم يتمه معهد الفكر الإسلامي:

● «الآجرومية العصرية لطلاب السنة الأولى بالمعاهد الدينية الإسلامية» المطبعة الرحمانية بالقاهرة (١٩٢٠م).

● «الأزهر وكتاب دراسات قرآنية» الفكر العربي بمصر.

● «تجديد علم المنطق شرح الخبيصي على متن التهذيب» مكتبة الآداب بمصر.

● «توجيهات نبوية» مكتبة الآداب بمصر.

● «الحرية الدينية في الإسلام» دار الفكر العربي بمصر وطبعت منه دار المعارف طبعة حديثة.

● «حرية الفكر في الإسلام» دار الفكر العربي بمصر.

● «القضايا الكبرى في الإسلام» مكتبة الآداب بمصر.

● «الكميت بن زيد شاعر العصر المرواني وقصائده الهاشميات» مطبعة الرسالة بمصر.

● «لماذا أنا مسلم؟» مكتبة الآداب بمصر.

● «المجددون في الإسلام من القرن الأول إلى الرابع عشر» مكتبة الآداب بمصر (١٩٦٢).

● «الميراث في الشريعة الإسلامية والشرائع السماوية والوضعية» مكتبة الآداب بمصر.

● «نقد نظام التعليم الحديث للأزهر الشريف، وكلمة في التعديل الجديد الصادر في سنة ١٣٤٢» المطبعة العمومية بطنطا.

● «تاريخ الإصلاح في الأزهر وصفحات من الجهاد في الإصلاح» مطبعة الاعتماد بمصر.

• «أسرار التمثيل بين الطريقة الأدبية والتقريرية» المطبعة المنيرية بمصر (١٩٥٥).

• «روائع النظم والنثر لأشهر رجال الأدب في العصر القديم والحديث» المطبعة العمومية بطنطا.

ـ ٣٨ ـ

قام الصعيدي أيضا بشرح وتحقيق مجموعة كتب مهمة في الحديث النبوي:

«توجيهات وتحقيقات في عشرين حديثا نبويا» مطبعة صبيح بمصر.

و«ثلاثون حديثا نبويا» مطبعة صبيح بمصر.

كما قام بتحقيق كتب في النحو والمنطق:

• «بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح» مطبعة محمد على صبيح ومكتبة الآداب بالقاهرة (٤ أجزاء).

• «بغية السالك لشرح أوضح المسالك» لابن هشام مطوع على هامش كتاب «أوضح المسالك» مطبعة الآداب بمصر ومطبعة على صبيح بمصر.

• «سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجي مطبعة محمد على صبحي بمصر.

• «شرح شذور الذهب» مطبعة صبيح بمصر.

• «المنطق المنظم شرح المولوي على السلم» مطبعة صبيح بمصر.

• و«بسط سامع المسار في أخبار مجنون بني عامر» محمد بن أحمد بن طولون الصالحي، مكتبة القاهرة بمصر.

• و«العقائد النسفية مع شرحها وحواشيها» المطبعة الرحمانية بمصر.

ـ ٣٩ ـ

ومن آثاره في الدوريات الشهيرة المفهرسة التي يسهل الرجوع إليها في كثير من المكتبات:

- «مساجلته مع عبد الحسين الموسوي حول تكذيبه لأبي هريرة ﷺ» .

مجلة الرسالة ١٧ من مارس ١٩٤٧م.

- «نقد الصعيدي لكتاب أبي هريرة للموسوي» .

مجلة الرسالة ٧ من أبريل ١٩٤٧م.

- «رد الموسوي على الصعيدي» .

مجلة الرسالة ٢٨ من أبريل ١٩٤٧م.

- «رد الصعيدي على الموسوي» .

مجلة الرسالة ١٩ من مايو ١٩٤٧م.

- «رد الموسوي على رد الصعدي المتقدم» .

مجلة الرسالة ٢٦ من مايو ١٩٤٧م.

- نقده لكتاب «الفن القصصي على القرآن» لمحمد أحمد خلف الله .

مجلة الرسالة ٢٤ من نوفمبر ١٩٤٧م.

- مقال «لمحات قضائية في مقتل عثمان» .

مجلة الرسالة ٩ من ديسمبر ١٩٤٦م.

- مقال «الملجأ الإسلامي الأول في عهد النبوة» .

مجلة الرسالة ١٤ من يناير ١٨٤٦م.

*****

الباب السابع

فكرة التسامح

محمد الصادق عرجون

١٩٠٣م

- ١ -

الشيخ محمد الصادق عرجون واحد من أبرز علماء الأزهر متعددي التخصص، والموهوبين، والمجدين ، وهم كما نعرف أكثر من أن يشملهم حصر، وهو أيضًا واحد من أبرز علمائه المؤلفين الذين تركوا آثارًا متميزة في علوم التفسير، والفكر الاجتماعي الإصلاحي ، والدراسات الأدبية، والتاريخ الإسلامي، وتراجم أعلام الإسلام . وقد ترك آثارا فكرية تنطق بما تميز به من تجويد ومع كل هذا فهو شاعر تأملي مجدد أقرب إلى مدرسة أبوللو .

وفي عصر الترانزستور كان الشيخ محمد الصادق عرجون من أبرز العلماء الذين برزوا في تقديم أحاديث الصباح الدينية في الإذاعة المصرية، وكانت أحاديثه حافلة بما يبين عن منهجه في التفسير القرآني ، وفهم الإسلام والحضارة ، وأعترف بفخر أني كنت أؤثر أسلوبه في الإلقاء الإذاعي الواثق المتدفق بالعلم على كل الأساليب الأخرى .

كان كما أحب أن أقول يتفوق حتى على العلماء الأمريكيين (بإمكانات مكاتبهم) في تتبعه للمصادر وجمعه للمادة ، وربطه بينها والتفكير فيها حتى يعيش في عصرها وأجوائها ثم يتولى تحريرها بأسلوبه الحافل بالقوة .

كان محمد الصادق عرجون في رأيي أيضا أبرز علماء الأزهر اقتناعا بجوهر فكرة التاريخ الطبيعي التي ترصد تطور حال الأفراد والجماعات مع مضي الزمن حتى وإن لم يستخدم مصطلحات العلم في الحديث عن هذه الفكرة ذلك أن نصوصه قاطعة بها على نحو بليغ سواء في ذلك أكان حديثه عن الإسلام وقادته أم كان حديثه عن الإنسانية وشرائعها.

كان محمد الصادق عرجون عاشقًا للأدب من صغره، وقد فتح الله عليه بتوظيف مواهبه الأدبية الفذة في خدمة الإسلام على نحو رائع ، وقد اختير ليكون من الأساتذة الأوائل للأدب في الجامعة الأزهرية عندما تم تطبيق أسلوب التخصص في الكليات الأزهرية فعظّم دور الجامعة الأزهرية في هذا الميدان .

ـ ٢ ـ

ولد الشيخ محمد الصادق عرجون في إدفو بمحافظة أسوان (١٩٠٣م)، وتلقى تعليمًا دينيًا تقليديًا بدأه في الكتاب ثم درس في الأزهر الشريف على النظام القديم الذي كان الأزهر فيه بمثابة كلية واحدة ، واستمر في دراسته المنتظمة حتى نال الشهادة العالمية على النظام القديم (١٩٢٩م)، أي في العام الذي سبق إنشاء الكليات الجامعية الأزهرية الجديدة، ثم نال درجة التخصص من درجة أستاذ وهي التي عودلت في وقتها بالدكتوراة (على النظام الأزهري القديم أيضًا) ١٩٣٥م.

وفي هذه الفترة ارتبط الشيخ محمد الصادق عرجون بأستاذه العظيم الشيخ محمد الخضر حسين، وشاركه نشاطه في جمعية الهداية الإسلامية، كما ارتبط بالشيخ إبراهيم الجبالي عميد أصول الدين الذي خصصنا له بابا في هذا الكتاب .

عين الشيخ محمد الصادق عرجون مدرسا بمعاهد الأزهر الشريف، وانتقل منها إلى كلية اللغة العربية، ثم عمل مدرسا بكلية أصول الدين، كما عمل شيخا لمعهد دسوق الديني، ثم عمل شيخا لمعهد أسيوط الديني، وشيخا لعلماء الإسكندرية، وعميدا لمعهدها (١٩٦٤م)، ثم اختير مديرا للتعليم الأزهري، فعميدا لكلية أصول الدين. وأحيل إلى التقاعد وهو عميد للكلية عام ١٩٦٨م.

وهكذا تواصل عطاؤه من خلال عدد من المناصب الأزهرية المرموقة التي لم يتح تعاقبها على هذا النحو إلا للنوادر.

ـ ٣ ـ

وعلى نحو ما تعددت إسهامات الشيخ محمد الصادق عرجون في مصر فقد تعددت روافد عطائه في البلاد الإسلامية، فقد تولى عدة مناصب في دول إسلامية أسهم من خلالها في دفع الدعوة الإسلامية، حيث تولى منصب مدير معهد الدراسات العليا الإسلامية بجامعة أم درمان الإسلامية بالسودان، كما عمل أستاذًا للدراسات العليا (علم الحديث) بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، وأستاذا بجامعات الكويت، والمدينة المنورة، و عمل أستاذا زائرا بجامعة بنغازي الليبية و في اليمن وأندونيسيا.

وكان آخر منصب تولاه أن عمل أستاذا للدراسات العليا للحديث بجامعة الملك عبد العزيز، وجامعة أم القرى بمكة المكرمة.

وقد أحسن الله خاتمته فقد فرّغ نفسه ووقته بعد انقطاعه عن العمل الوظيفي لوضع كتابه القيم «محمد رسول الله.. منهج ورسالة»، بحث وتحقيق، وهو الكتاب الذي صدر بعد رحيله.

ـ ٤ ـ

في الميدان العلمي كان الشيخ محمد الصادق عرجون عضوا بهيئة كبار العلماء، وعضوا برابطة العالم الإسلامي، وعضوا في مجمع الفقه الإسلامي بمكة المكرمة،

و في ميدان العمل العام كان عضوًا مؤسسًا بجمعية الشبان المسلمين، ، كما كان عضوا في جماعة أبوللو الأدبية.

ومن الجدير بالذكر أن الشيخ محمد الصادق عرجون اهتم في شبابه بنشر مراكز تحفيظ القرآن الكريم كما عمل في شبابه في التصحيح في جريدة «الأهرام».

وكانت للشيخ محمد الصادق عرجون في شبابه مساجلات ، ورسائل متبادلة مع

كبار مثقفي عصره: محمد فريد وجدي، وطه حسين، ومحمد حسين هيكل ، وسيد قطب .

وعلى المستوى السياسي لا يفوتنا أن نذكر أنه كان أبرز من المعارضين لما عرف بتطوير الأزهر، كما كان معارضا لفكرة إدماج الدراسات العلمية والحديثة في كلياته، وكان يؤثر الحفاظ على الطابع الأصلي للأزهر.

ـ ٥ ـ

نبدأ أولا بالحديث عن جهده في مجال التفسير والدراسات القرآنية ، وعن منهجه في تفسير القرآن الكريم وفهم مكانته .

ولا جدال في أن الأستاذ محمد الصادق عرجون كان من المفسرين المجتهدين، وكان له منهج خاص في تفسير كتاب الله بلوره في كتابين مطبوعين :

- كتابه الضخم «القرآن الكريم.. هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين» .
- كتابه الموجز «نحو منهج لتفسير القرآن» .

وتدور فكرتها على ضرورة الاهتمام بكتاب الله باعتباره مصدرا للهداية الإنسانية، ومنقذًا للبشرية ! قبل أن يكون مجالا لمناقشات علمية تتعلق بالنحو أو الصرف أو مباحث علم الكلام، أو ضروب اللجاج بين الطوائف المتنازعة.

وله في التفسير :

- ـ «تفسير سور: التوبة والروم ولقمان والسجدة».
- ـ «شرائط تسجيل تليفزيونية».
- نفحات الإنعام في تفسير سورة الأنعام». مخطوط .

و من كتب الدراسات القرآنية أيضا :

- ـ «من رياض القرآن».
- ـ «رد مزاعم رسالة في قراءات القرآن».
- ـ «سنن الله في المجتمع من خلال القرآن».
- ـ «الأمة الإسلامية كما يريدها القرآن».

ـ٦ـ

كان للأستاذ محمد الصادق عرجون رأي عظيم ومتقدم في مكانة كل من الإسلام والقرآن في تاريخ الإنسانية ، وهو ما يتضح من اسم كتابه «القرآن العظيم هدايته وإعجازه» فالهداية والإعجاز هما سر القرآن العظيم وبهما أصبح القرآن نبيا مقيما يؤكد ختم النبوة والرسالة ويلبي في نفس الوقت احتياجات الأمة الإسلامية الواحدة. وهو ينطلق في فهمه وتقريره من فكرة التطور التي أشرنا إليها في مطلع هذا الباب فيقول:

«شرع الله تعالى الإسلام دينا للإنسانية عاما خالدا، وجعله خاتم حلقات سلسلة الوحي المتلاحقة في سجل التاريخ الإنساني من لدن آدم إلى محمد ـ صلوات الله عليه ـ فكان هو الحلقة المكملة لتنزيل الرحمة التشريعية إلى الإنسان في هذه الأرض» .

«وقد شاءت حكمة الله أن تكون كل حلقة من حلقات التشريع الإلهي على قدر استعداد الجماعة التي تأتي لها في تكوينها الطبعي والخُلُقِي والاجتماعي، وكأنما نَظَمَ الله الإنسانية بالوحي عقدا اجتماعيا متماثل الحلقات في كل جيل وقبيل، وإن اختلفت في الوضع والتصوير، لتتفق مع وضع الأمة في مكانها من الحياة : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣] حتى إذا اكتملت الإنسانية في حقيقتها المطلقة وتهيأت للوحدة الفكرية والاتجاه العقلي، جاءها الإسلام مهيمنا على

زمامها، ليرشدها إلى ما أعدت له من الكمال الذي يسمو بها عن حضيض الأرض إلى ملكوت السماء» .

ـ ٧ ـ

ويصل الأستاذ محمد الصادق عرجون بعد هذا إلى التأكيد على فكرته القائلة بسلطان العقل في الإسلام إيجابا وسلبا حسبما يؤكد القرآن الكريم :

«.... ومن ثم كانت الشرائع السابقة إنما تخاطب عقلا خاصا محدودا خطابا خاصا محدودا، لا يتعدى هذا الجيل من الناس إلى غيره من الأجيال، ولا هذا القبيل إلى سواه من المجتمع، ولا ذلك التشريع إلى تشريع أوسع وأعمق، لأن العقل الإنساني العام لم يكن صالحا حينئذ لهذا الخطاب العام، لكن الإسلام عمد إلى هذا العقل الإنساني العام بعد أن تهيأ في تكوينه إلى الاضطلاع بعبء الحياة، وخاطبه خطاب المرشد إلى الطريق الأقوم، وجعله قَيِّمًا على شؤون الحياة كلها» .

«وأبى الإسلام أن يقبل سلطانا غير سلطان العقل، وشدد النكير على الذين استسلموا لبلادة الحسِّ، وأناموا عقولهم عن النظر والتفكير، فقال في دستوره ناعيا عليهم ازدراء عقولهم وتشبثهم بالغباء في اتباع آبائهم على ضلالاتهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠] .

وقال في موضع آخر : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [الأعراف:١٩٤، ١٩٥] .

فهذا التسفيه البالغ حد التحقير للمخاطبين أشد إيلاما لنفوسهم، وألذع في

أفئدتهم، وقد مهد له القرآن بقضية من بَدائة الفِطَر لا تختلف فيها العقول سيقت للتنبيه على موطن الخطأ العقلي في مسلكهم، حيث تعبدوا أنفسهم لما لا يستحق الحياة، بله العبادة والتقديس. هم يعلمون أن الأصنام ليست لها أرجل تمشي بها، ولا أيد تبطش بها، ولا أعين تبصر بها، ولا آذان تسمع بها، ولكن في نفي هذا المعلوم بداهة عن طريق الاستفهام إزراء على عقولهم بأبدع أسلوب: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢] .

ـ ٨ ـ

على هذا النحو كان الأستاذ محمد الصادق عرجون على غير ما هو متوقع ينحاز إلى العقل انحيازا بالغا لكنه انحياز من نوع خاص هو انحياز من يعول على العقل أن يتيقظ ويؤدي مهمته في إيقاظ النفس البشرية ، وكانت هذه الفكرة هي الفكرة المسيطرة على فهمه للنصوص القرآنية وتفسيره لها :

«... أراد القرآن الكريم بهذا المبدأ السامي إيقاظ العقل وتنبيهه إلى أداء مهمته وإبراء النفس الإنسانية من مرض التقليد الأصم، وتربية القوى الفكرية على الاعتداد بالنفس واستقلال الرأي وحرية التفكير، ولذلك أثنى على الذين أيقظوا عقولهم وتفلتوا من قيود التقليد إلى ساحات النظر في آيات الله في الأنفس والآفاق، وساروا بسير العلم غير ملتفتين إلا إلى الحق فلم يقولوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣] ، ولا اعتذروا اعتذار العاجز الذليل: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب:٦٧] ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]» .

هذا النوع من التشريع الفكري من أهم ما عُنِيَ به القرآن الحكيم، فردده كثيرا في آيات بينات على أنحاء شتى، تعظيما لقدر الإنسانية وإجلالا لمقام العقل العام في حدود تكبح من جماحه إذا تطلع إلى تعدى طوره، ومجاوزة حده .

— ٩ —

ومن الإنصاف لجهد الأستاذ محمد الصادق عرجون أن نشير في سرعة شديدة إلى أنه اجتهد مبكرا فيما يسمي الآن بالإعجاز العلمي وما ينبغي أن يكون موقف التفسير من آياته ، لكنه لم يتح له الوقت لإعادة ترتيب أفكار كثيرة بدت متناقضة فيما أدلي به من دلو في هذه الموضوعات مع ما هو معروف عنه من حماس بالغ لرأيه.

وقد حذفت من هذا الباب كل ما كنت جمعته من الانتقادات التي وجهت إليه والي جهوده ومقولاته في هذه الجزئية مكتفيا بأن أذكر ما يشير إليه العلامة الدكتور محمد رجب البيومي من أن الأستاذ محمد الصادق عرجون وجه انتقادات إلى الإمام محمد عبده و الإمام المراغي فيما اتجها إليه من تفسير بعض الآيات الكونية في ضوء ما تمخض عنه العلم الحديث، مع أن الشيخ عرجون حبذ هذا الاتجاه بشروط دقيقة لم تكن من ابتكاره، بل كانت كما يقول الدكتور البيومي مما أشار إليه الأستاذ الإمام محمد عبده موجزا، وما وضحه الإمام المراغي تفصيلا في المقدمة العلمية التي قدم بها لكتاب «الإسلام والطب الحديث»، وقد وافقهما محمد الصادق عرجون حين تحدث في كتاب «نحو منهج لتفسير القرآن» عن بعض الآيات الكونية مهتديا بحقائق العلم الحديث.

— ١٠ —

وننقل ثانيا إلى ميدان مهم تجلى فيه ذكاء الشيخ محمد الصادق عرجون وعبقريته وهو دراسة السنن الإلهية والتاريخ الطبيعي ، وقد كنت حريصا في مقدمة هذا الباب على أن أشير إلى رأيي في أنه أبرز علماء الأزهر اقتناعا بفكرة التاريخ الطبيعي

التي ترصد تطور حال الأفراد والجماعات مع مضي الزمن حتى وإن لم يستخدم مصطلحات العلم في الحديث عن هذه الفكرة ذلك أن نصوصه قاطعة بها على نحو بليغ بمستوى في هذا حديثه عن الإسلام وقادته وحديثه عن الإنسانية وشرائعها.

و في هذا الميدان ألف الشيخ محمد الصادق عرجون كتابه الفريد «سنن الله في المجتمع» فأسهم في السعي إلى إنشاء علم السنن الإلهية الذي أشار الأستاذ محمد رشيد رضا إلى وجوب الاهتمام باستقلاله من علم التفسير، كما استقل علم الفرائض من علم الفقه.

ـ ١١ ـ

وننتقل ثالثا إلى جهد الشيخ محمد الصادق عرجون العلمي المتجلي في كتابة سيرة الرسول ﷺ في أربعة مجلدات تحوي أكثر من ألفين وسبعمائة صفحة عن سيرة رسول الله ﷺ.

ومن المهم أن نشير في سرعة إلى بعض الملامح المميزة في هذا العمل العظيم :

• أعد الشيخ مواده بتوسع على غرار ما تفعل مراكز البحوث و عكف عشر سنوات متوالية على دراسة كل ما أمكنه دراسته مما كتب عن رسول الله في القديم والحديث، مبديا رأيه فيما صادفه من روايات تتفق تارة وتتعارض تارة أخرى .

• قرر ـ فيما قرر من منهج ـ أن يلزم نفسه بأن يرفض التلفيقات المفتعلة والاحتمالات الواهية في كتابة السيرة المطهرة.

• امتد بتحقيقه إلى ما تضمنته كتب التفسير القرآني وشروح الحديث النبوي، وصحف التاريخ الإسلامي المتعددة .

• تعرض بالتحقيق لكل ما قابله من روايات ، وحرص على هذا التحقيق بروح الباحث المتبحر حتى إن حجم تحقيقه لبعض المسائل يبلغ كما يقول الدكتور محمد

رجب البيومي خمسين صفحة.

• كان في مناقشاته جريئا حتى أنه ناقش أعلام كبار من المفسرين والمحدثين من أمثال الطبري، وابن حجر، والإسماعيلي، والواقدي، وابن تيمية، وأبي حيان، وابن إسحاق، وابن كثير، والزرقاني، والسهيلي، وابن القيم، وابن سلام وغيرهم.

• اختص آراء الأستاذ الإمام محمد عبده بنقوض كثيرة .

ـ ١٢ ـ

ونأتي رابعا إلى إشارة سريعة إلى الفكرة التي تبناها الشيخ محمد الصادق عرجون مذهبا فكريا لنفسه ، وجعلناه رمزا لها في هذا كتابنا هذا ، وهي فكرة التسامح فنشير بفخر إلى أنه سبق العالم كله بتأليف موسوعة كاملة فيها «الموسوعة في سماحة الإسلام» وقد صدر هذا الكتاب عن دار «سجل العرب»، فكان من أبرز الكتب التي خصصت للحديث عن يسر الإسلام، وسماحته في معاملة غير المسلمين. وذلك قبل أن تنمو مؤسسات كبرى تعمل لقضية التسامح وحدها.

وفي هذه الموسوعة تتبع الشيخ محمد الصادق عرجون سماحة الإسلام عبر العصور ابتداء من مصادره ومرورا بتاريخه الطويل، ومواقف المسلمين في تطبيق دينهم.

ـ ١٣ ـ

ونأتي إلى المجال الخامس لتجليات الشيخ محمد الصادق عرجون وهو فلسفة التاريخ الإسلامي فنجده صاحب توجهين متميزين في هذا الميدان وإن لم يصرح بهذا بالنص :

فقد كان أولا يرى ضرورة الحديث عن قادة الإسلام وأثرهم في تحرر الفكر الإسلامي، وكان يقول : إن عظماء الصدر الأول من رجالات الإسلام قد جمعوا

بين السياسة والفكر، وأفادوا من الفكر النظري في الميدان العملي، فصدروا في أحكامهم واتجاهاتهم عن مبادئ شريعة ذات هدف إنساني ! ولهذا كان ينادي بالانتباه إلى أن زعماء هذا العهد ، قادة فكر ، بهذا المعنى!

وكان الشيخ محمد الصادق عرجون على سبيل المثال يؤكد على أن عمر بن الخطاب ﷺ قد مارس تطبيق الشريعة الخالدة ممارسة المفكر المجتهد الحصيف، وأبدى من الآراء في قيادة الدولة وصلاحية المجتمع وتحقيق مبادئ الإخاء والحرية والمساواة ه ارتفع به عن مستوى فلاسفة الإغريق، لأن هؤلاء قد قالوا كلاما وقرروا قواعد ثم انتهى دورهم الفكري بأن رقد في بطون المجلدات، أما عمر فقد التزم بأصول الشريعة التزام المفكر المجتهد العالم في سياسته العامة والخاصة، كما أن له زملاء من الصحابة الذين تخرجوا من مدرسة محمد ﷺ ، شاركوه الرأي والتنفيذ، وهؤلاء نماذج ممتازة لقادة الفكر الإنساني قبل أن يكونوا نماذج ممتازة لقادة الفكر الإسلامي.

ـ ١٤ ـ

ثم نأتي إلى التوجه الثاني للشيخ عرجون في ميدان التاريخ الإسلامي وهو ما تمثل في جهده في جلاء فكرة حرية الرأي في الإسلام وتاريخه ، وكيف أن هذا التاريخ قام حول هذه الفكرة .

كان الأستاذ عرجون لايحيد عن إيمانه بوجود مكانة متقدمة لحرية الرأي في الإسلام وكان يراها تؤما لحديثه عن مكانة العقل في الإسلام . وقد كان الشيخ عرجون يري ان أخص خصائص الإسلام وأعظم مميزاته على الشرائع الأخرى إطلاقا، أن الإسلام أقام من العقل الإنساني حارسا على الإنسانية، وَمَلَّكَ الإنسانية الحياة لتكون حية نامية، والنمو رقي في مدارج الكمال. وهو بهذه الروح الهادئة القوية ضَمِنَ لنفسه البقاء والهيمنة على ما سواه : «إن هذا الدين متين فأوغل فيه

برفق، ولن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه» .

«فهِم المسلمون الأوّلون الإسلام على هذا الأساس، فعظموا حرية الرأي تعظيما جعل منهم أمة ناهضة مدت سلطانها على أقطار الأرض في زمن لا يمكن أن ينهض بهذا السلطان القاهر لو كانت الأمة القائمة على أمره حبيسة العقل مقيدة التفكير، وليس مبدأ الشورى الذي جاء به الإسلام وجعله مناط الثناء على المؤمنين فقال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:٣٨] ، وأمر الله به نبيه ﷺ ليجعله دستورا بينه وبين أمته فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩] إلا قاعدة من قواعد حرية الرأي وتقديسها، فاستمع الرسول أمر ربه، وجرى على هذا السَّنَن فيما لم ينزل عليه وحي فيه» .

«روى البخاري في صحيحه «أن رسول الله ﷺ قام حين جاء وفد هوازن مسلمين فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم، فقال رسول الله ﷺ : **«معي من ترون، وأَحَبُّ الحديث إلى أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبي، وإما المال، وقد كنت استأنيت بكم»** ـ وكان أَنْظَرَهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة حين قَفَل من الطائف ــ فلما تبيّن لهم أن رسول الله ﷺ غير رادٍّ إليهم إلا إحدى الطائفتين، قالوا: فإنا نختار سبينا، فقام رسول الله ﷺ في المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: **«أما بعد، فإن إخوانكم قد جاؤونا تائبين وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيّب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل»** ، فقال الناس: قد طيّبنا ذلك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ : **«إنا لا ندري من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يَرْفَع إلينا عرفاؤُكم أمركم»** ، فرجع الناس، فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيّبوا وأذِنُوا» .

-١٥-

ويتأمل الشيخ محمد الصادق عرجون ما تدل عليه القصة التي رواها الحديث الشريف من قواعد للممارسة الديمقراطية تعلى من قيمة حرية الرأي، وحرية الفكر ، ومن الحق أن نقول إن قراءة الأستاذ عرجون للنص تميزت بالذكاء:

«هذا الحديث الشريف يصوّر أقصى ما تبلغ إليه الأمم الناهضة من حرية الرأي ونظام النيابة الفاضلة، ومحو الاستبداد، وفيه من الفوائد العظيمة التي تدنو منا في عصرنا هذا، عصر الحرية الفكرية واستقلال الرأي، ما يجل عن الوصف، في موضوع «حرية الرأي» :

• «أول ما يبْده القارئ من هذا الحديث قول النبي صلوات الله عليه لهؤلاء الذين دخلوا في الإسلام جُدُدا: «معي من ترون، وأَحَبّ الحديث إلى أصدقه» ؛ ليشعرهم بقانون الإسلام العام، وهو احترام الحقوق وتقديس حرية الرأي، والتجافي عن روح الاستبداد، والحكم الفردي، فكأنه يقول: إن الأمر صار إلى الأمة، ولا بد من أخذ رأيها، مع أنه لو فعل شيئا ما طرفت عين بمخالفته : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥] ، ولكنه مشرع لدين عام خالد، وهؤلاء تلاميذ مدرسته العظمى، مدرسة الحياة، والقائمون بأمر هذا الدين من بعده، فهم في حاجة إلى دروس في التربية الاستقلالية والاعتداد بالنفس وحرية الرأي، فردّ إليهم الأمر ليعلم وافدو الإسلام روح التشريع في الإسلام، وليعلم حماة الإسلام مكانهم من الدين، ومكان الدين منهم.

• ثانيا: لم يشأ - صلوات الله عليه - أن يجبر هوازن بعد أن استأنى بها وقطع عذرها على قبول طائفة بعينها، بل خيرهم بين إحدى الطائفتين: إما المال، وإما السبي، وفي ذلك من احترام الرأي ما لا يحتاج إلى بيان.

• ثالثا: عَرَضَ الأمر على أصحابه، وذكر لهم توبة إخوانهم، وقال لهم: إني قد رأيت أن أرد عليهم سبيهم، ثم أطلق لهم حرية الرأي، وأبان أنه لا يحكم إلا بما تطيب به نفوسهم، فقالوا قد طيّبنا ذلك، أَفَتَرَاهُ ـ وهو الرسول الأمين ـ قام إلى سبي هوازن فرده إليهم اتكالا على إجابة عامة من حشد المسلمين؟ كيف ولعل في غمار المسلمين من لم يؤبه له، ولا يعرف رأيه في هذا الجمع العظيم، والمسلمون سواء أمام التشريع العام، لكل مسلم رأيه، ولكل رأي اعتباره، لا، لم يتفرد النبي برأيه، ولكنه عمد إلى أدق نظم حرية الرأي، وأحراها بالعدالة فجرى عليها: أمرهم أن يرجعوا إلى أنفسهم، ويتعرفوا منها الرضا أو الإباء وينضجوا رأيهم، ويتفاوضوا مع نوابهم، ثم يرفعوا إليه ما استقر عليه رأيهم.

ـ ١٦ ـ

ويواصل الشيخ محمد الصادق عرجون الحديث عن المظاهر المبكرة للديمقراطية وحرية الرأي في حياة المسلمين على نحو ما تعلموها واقتدوا بها من الرسول ﷺ، وهو يقرأ الأمثلة التي يعرفها المسلمون قراءة فاحصة تبين عن مواطن الارتقاء والتطور الطبيعي للعقل البشري:

نظام بلغ أسمى آيات «الديمقراطية» كما يقولون في أمة حديثة ناشئة، أليس هو أحدث ما تطمح إليه الأمم الناهضة لتعيش في ظله؟ فليتبصر الذين لا يعرفون من الإسلام إلا قشورا منثورة هنا وهناك ليست من الإسلام في الصميم.

«اشترع النبي ﷺ هذه الشِّرعة النَّقِية الطاهرة في حرية الرأي، فاستن بسنته خلفاؤه الراشدون من بعده، فهذا هو الخليفة الأول أبو بكر الصديق ﷺ قد ملَّكَهُ المسلمون رقابهم وأموالهم، وبايعوه بالخلافة بيعة رضا واطمئنان، خطب الناس أول ما خطبهم بعد مقام الخلافة فقال: «أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإني أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني» . فكيف تكون إذن حرية

الرأي؟!! خليفة يملك من أمر الناس ما لا يملكونه في بيوتهم، ثم يرد إليهم أمر نفسه ويجعلهم ميزانا لأعماله، ويطلب منهم العون إن أحسن، والتقويم إن أساء. بهذه الروح ظفر أبو بكر ﷺ بالعرب بعد أن ارتدت أقاصيها» .

«ولقد سرت هذه التعاليم في المسلمين، فكان من أثرها أن يقوم رجل من عرض المسلمين يقول لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعد قوله: «من رأى منكم فيّ اعوجاجا فليقومه» : «والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا» ، فيقول عمر: «الحمد لله الذي جعل في أمة محمد من يقوم عوج عمر» ، إنما حمد الله عمر لأنه رأى في الأمة روح الاعتداد بالنفس ساريا فاطمأن على أنه يتأمّر أمة لا تلين لها في الحق قناة».

«بل إن عمر ﷺ بث في الأمة حرية الرأي بين كبيرها وصغيرها، روى ابن الجوزي أن عمر بن الخطاب قال: «لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية ولو كانت بنت ذي القَصّة، فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال» ، فقالت امرأة من صف النساء طويلة في أنفها فطس: ما ذاك لك، قال: ولم؟ قالت: لأن الله يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٢٠] فقال، عمر: «امرأة أصابت، ورجل أخطأ» .

– ١٧ –

و يتوسع الشيخ محمد الصادق عرجون في قراءة قصة استخلاف أبي بكر لعمر ابن الخطاب على نحو يبدو فيه حريصا على النفي الذكي للخباثات التي رددها بعض من نقلوا عن المستشرقين :

«وإذا تأملنا في أن رسول الله ﷺ صعد إلى الرفيق الأعلى ولم يخلف على المسلمين رجلا بعينه، وهذا كان ميسورا وحاسما، علمنا أن ذلك أثر من آثار حرية الرأي في

الإسلام. وأبو بكر ﷺ لم يخلف عمر بن الخطاب إلا بعد أن فوض إليه المسلمون ذلك».

«روى ابن الجوزي: «أنه لما ثقل أبو بكر واستبان له من نفسه جمع الناس إليه فقال: إنه قد نزل بي ما ترون، ولا أظنني إلا ميتا لما بي، وقد أطلق الله إيمانكم من بيعتي، وحل عنكم عقدتي، ورد عليكم أمركم، فأمّروا عليكم من أحببتم، فإنكم إن أمرتم في حياةٍ مني كان أجدر أن لا تختلفوا بعدي» ، فقاموا في ذلك وخلوا عليه، فلم تستقم لهم، فرجعوا إليه، فقالوا: رأينا يا خليفة رسول الله رأيك، قال: فلعلكم تختلفون، قالوا: لا، قال: فعليكم عهد الله على الرضا، قالوا: نعم، قال: فأمهلوني حتى أنظر لله ولدينه ولعباده» .

ـ ١٨ ـ

و يربط الشيخ محمد الصادق عرجون في ذكاء بالغ بين حرية الرأي والتشريع والاجتهاد بما يجعلنا نزداد ثقة فيما اعتقدناه من عظمة الإسلام :

«فإذا كانت حرية الرأي في الإسلام تتجلى في أخطر مسألة يدور عليها كيان الأمة، ويترك لكل مسلم أن يقول فيها رأيه في أحرج المواقف، كانت أحرى أن تتمشى مع الأمة في مراحلها التشريعية والاجتماعية، فأما التشريع فحسب القارئ الاطلاع على تاريخ فجر النهضة الإسلامية ليعلم كم كان من المجتهدين الذين لا يصدرون في رأي إلا عن كتاب الله أو سنة الرسول الصحيحة، وحتى إن الأصوليين يختلفون في أصحاب رسول الله: هل جميعهم مجتهدون؟ وكتب الفقه والأصول مليئة بالفروع التي وقع فيها الخلاف بين الأئمة، وما عاب أحد منهم على أحد اجتهاده، ولا حجر عليه رأيه» .

ـ ١٩ ـ

ويتصل بهذا ما يثبته الشيخ محمد الصادق عرجون من حرص الإمام مالك على تعدد الآراء وعلى ألا يكون هو نفسه (أو علمه أو مذهبه) حجرا على هذا التعدد:

«فهذا مالك بن أنس إمام المدينة: قال له أبو جعفر المنصور: اجعل هذا العلم علما واحدا. فقال له مالك: «إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في البلاد فأفتى كل في مصره بما رأى، فلأهل المدينة قول، ولأهل العراق قول» . وفي رواية أنه قال له: «إن أهل العراق لا يرضون علمنا» . فقال أبو جعفر: يضرب عليه عامتهم بالسيف، ونقطع عليه ظهورهم بالسياط، فأبى مالك. فانظر إلى إجلال مالك بن أنس - وهو من أجل أئمة المسلمين المقتدى بهم في مشارق الأرض ومغاربها ــ لحرية الرأي وتجافيه عن خذلانها.

«خليفة مسلط يعرض عليه نشر علمه في الأرض ولا يكون بين الناس غير رأيه فيأبى؛ لأن لكل مجتهدي مصر من أمصار المسلمين رأيا أخذوه عن منبع الشريعة».

ـ ٢٠ ـ

ويبلور الشيخ محمد الصادق عرجون هذا كله في عبارة جميلة فاصلة يبدؤها بقوله : «إن حرية الرأي أساس فهم عمومية الدين»، و هو يختم مقاله الشهير الذي نشره في مجلة الأزهر :

«حرية الرأي أساس فهم عمومية الدين، وهيمنته على سائر الأديان، وصلاحية الشريعة لكل زمان ومكان، وأنه لا حاجة معها إلى قانون آخر. قال العلامة ابن القيم: «ومن له ذوق في الشريعة واطلاع على كمالاتها، وأنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد، ومجيئها بغاية العدل الذي يفصل بين الخلائق وأنه لا عدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح، وعرف أن السياسة العادلة جزء

من أجزائها وفرع من فروعها، وأن من له معرفة بمقاصدها ووضعها مواضعها، وحسن فهمه فيها، لم يحتج معها إلى سياسة غيرها البتة» .

ومن البداهة بالمكان الأول أننا لا نعني بحرية الرأي ما يفهم من كلمة «الفوضى» حتى يباح لكل متعلم فضلا عن شبه المتعلم أن يقول في الشريعة برأيه، وإنما نعني أن العالم الثقة إذا فهم في الشريعة فهما وساق بين يديه دليله، فلا سبيل عليه، ولا تحجير على فضل الله» .

- ٢١ -

ونأتي إلى الميدان السادس لتفوقه فقد كان للأستاذ عرجون مذهب متميز في كتابة تاريخ الشخصيات يمكن وصفه أو تسميته بأنه المذهب الأخلاقي، حيث كان يعطي أهمية بالغة لدراسة الأخلاق الشخصية، حتى إنه يزن بها كل ما يصادفه في طريق البحث من رأي مذهب أو رواية.

وقد ذكرنا من قبل أن الشيخ محمد الصادق عرجون كان من الوطنية والانتماء بحيث التفت إلى أهمية تقديم قادة الفكر الإسلامي ليأخذوا مكانتهم مع قادة الفكر الإنساني ، وذلك عندما رأى البيئة الثقافية قد أدارت النقاش حول مفهوم قادة الفكر بعيدا عن الدائرة الإسلامية :

«لم يشر أحد إلى تتابع الدورة الثقافية شرقا وغربا ، وإلى أن هذه الدورة قد انتهت إلى الفكر الإسلامي فأحدثت أثرها القوي في تاريخ الفكر الإنساني ، فقلت في نفسي : إن الضرورة ملزمة بالحديث عن قادة الإسلام وأثرهم في تحرير الفكر الإنساني، وإذا كان عظماء الصدر الأول من رجالات الإسلام قد جمعوا بين السياسة والفكر أي أنهم أخضعوا الفكر النظري إلى الميدان العلمي فصدروا في أحكامهم واتجاهاتهم عن شريعة ذات هدف إنساني ، فإن زعماء هذا نعهد قادة فكر بهذا المعنى» .

ـ ٢٢ ـ

نشر الأستاذ محمد الصادق عرجون كتابه الأشهر «قادة الفكر في تاريخ الإسلام» على هيئة مقالات متتابعة في مجلة الأزهر بدءا منذ ١٩٣٩، وجاهر فيه برأيه القائل بأن الفكر قبل الإسلام كان فلسفيا في كنف الفلسفة، وتشريعيا في كنف الفقه والتشريع، وسياسيا في بيئة السياسة، واجتماعيا في ظل الاجتماع، فلما جاء الإسلام احتضنه، وعظّم من شأنه، وجعله المهيمن على منافذ الحياة كلها، والإسلام دين فلسفة وتشريع واجتماع وأخلاق، يسمو بالفرد والجماعة من طريق تكميل خصائصهما الطبيعية، ولهذا فقد كان مجال الفكر فيه أرحب ساحة، وأوسع مدى، وأقرب غرضا، وأجمع لمناحي الوجود، فهو في ظل الإسلام سياسي تشريعي، واجتماعي خلقي، وفلسفي علمي، «غير أن حيوية الإسلام القاهرة جعلت من روحه قوة مسيطرة على الفكر تسدده في سيره، فأخذته بالتربية المندرجة بعد أن أحاطته علما بسمو حقيقته».

وبالإضافة إلى ما كتبه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإن له في هذا المجال كتابان مهمان عن عثمان بن عفان، وخالد بن الوليد.

وقد أخذ جانب الدفاع المطلق عن الخليفة الشهيد، وكان جوهر رأيه أن الخليفة الشهيد عثمان بن عفان قد رمي بالباطل في كثير مما قيل فيه، وقد أوضح وجه البطلان في هذه الاتهامات الظالمة .

أما كتابه عن خالد بن الوليد فقد ركز فيه على تفنيد ما رآه الدكتور محمد حسين هيكل في دواعي عزل خالد بن الوليد عن القيادة وملابساته، موضحا وجهة نظر مخالفة تماماً، ووصل في هذا إلى حد الهجوم العنيف على الدكتور هيكل.

ـ ٢٣ ـ

كذلك كتب الشيخ عرجون فصولا مسلسلة عن علي بن أبي طالب. كما كتب عن الخليفة الأول أبي بكر الصديق في أكثر من موضع .

وكتب عن العبادلة الخمسة المتعاصرين : عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص، ، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

وألف كتابا متميزا عن أبي حامد الغزالي المفكر الثائر من زاوية التصوف وحرية الرأي كما تناول مصادر الغزالي في إحيائه، وعرض رأيه الشخصي في قضية الشك عند الغزالي .

ـ ٢٤ ـ

ونأتي إلى الميدان السابع وهو ميدان الأدب وقد أسلفنا أن الشيخ محمد الصادق عرجون كان عاشقًا للأدب منذ صغره وظل أديبا طيلة حياته . ويكفيه وصف الدكتور البيومي له ولأسلوبه حيث يقول:

«.... في أسلوبه ما في شخصيته من فحولة وشجاعة وقوة، فلقد كان الأستاذ ذا حمية مخلصة وغيرة ملتهبة تلمسها في حديثه كما تراها في بريق عينيه وتوهج ملامحه» .

وقد اختير الأستاذ عرجون ، كما ذكرنا في مقدمة هذا الباب ، ليكون من الأساتذة الأوائل للأدب في الأزهر عندما تم تطبيق أسلوب التخصص في الكليات الأزهرية فلما عهد إليه بأستاذية الأدب في الجامعة الأزهرية كان له الفضل في وجود بحوث ودراسات متميزة في مجالات الموازنة الأدبية، وقد نشر مقالات عديدة تعد بمثابة بدايات لهذه الدراسات.

وقد تحدث الشيخ محمد الصادق عرجون في مقالاته عن البيئة وأثرها في الشعر

الجاهلي، وعن أدب الحضارة وأدب البداوة، وقدم تفسيرات مقنعة لقلة الأدب الحضاري في بلاط المناذرة بالعراق، ومحافل الغساسنة بالشام، وقارن بين قصائد العصر العباسي المتحضر وقصائد العصر الجاهلي المتبدئ مقارنة تعتمد على النصوص الشعرية المتعارفة. وقد انتهى من بحوثه إلى القول بقوة التفكير لدى العرب الجاهليين ووجود أدب راق في هذه الحقبة، إذ ليس من المعقول أن توجد حضارة في اليمن والعراق والشام ثم لا ينبعث عنها أدب حي، وقد ذهب الأستاذ عرجون إلى أن هذا الأدب قد ضاع، كما ضاعت آلاف القصائد.

ـ ٢٥ ـ

وقد دلنا الدكتور محمد رجب البيومي على أن الأستاذ محمد فريد وجدي اختلف مع الأستاذ عرجون في هذه القضية ، ولفت نظره إلى أن مثل هذا القول يوافق أقوال المستشرقين، وأن هؤلاء بتقريرهم مثل هذا الارتقاء المزعوم يحاولون أن يضائلوا من بريق الإسلام باعتباره منبثقا عن هذا الارتقاء.

وهو ما يستتبع القول بأن تعاليم الإسلام الراقية كانت صدى لهذا الفكر المتوثب، وأن صاحب الرسالة وجد النفوس مهيأة للدعوة الجديدة بفضل هذا الارتقاء، فأقبلت على الإسلام هاتفة مرحبة .

وهذا ما يخالف الواقع المتعالم، إذ لو صدق هذا الزعم ما وجد الرسول ﷺ هذه المعارضة الحادة لدينه، ولما تعرض أتباعه للتعذيب الرهيب والمقاطعة الصارمة، حتى كان قتله مبيتا لدى أعدائه من المشركين.

وقد رد الأستاذ عرجون على الأستاذ محمد فريد وجدي الذي كان في ذلك الوقت رئيسا لتحرير مجلة «الأزهر» ولخص الأستاذ فريد وجدي رده لكنه لم ينشره كاملا فنشره الأستاذ عرجون في كتاب مستقل.

وفضلًا عن هذا فإن له دراسات في الأدب والنقد الأدبي القديم .

و بالإضافة إلى هذه الميادين التي تحدثنا عن جهد الأستاذ عرجون فيها فإن له مؤلفات في قضايا إسلامية أخرى على نحو ما يتضح من قائمة مؤلفاته في نهاية هذا الباب .

ــ ٢٦ ــ

ونأتي إلى شعره فنجد له قصيدة مطولة بعنوان «الطيف الخالد» - نشرتها مجلة أبولو (يونيو ١٩٣٣)، وله ديوان غير مجموع كان يسميه: «عزف الضمير» نشرت بعض قصائده في مجلتي أبوللو، والرسالة..

تتميز قصيدته المطولة بنزعة تأملية فلسفية صوفية تكثر من طرح الأسئلة عن الكون والمصير والبشر، ومع امتداد القصيدة تتنوع القافية، كما أنه كان يستخدم فيها البحر تامًا ومجزوءًا على نحو ما كان منتشرًا بين شعراء أبوللو. ولنقرأ بعضا من قصيدته «الطيف الخالد» (دون أي تعقيب منا) فلغتها سلسة وسياقها متواصل ومعانيها بديعة :

إيـــهِ يـــا ريحانـــةَ الـــوادي الـــسحيقْ
انعِتـــي الأجيـــال مـــن غـــورٍ عميـــقْ
نفِّـــسي عنـــي أزيـــزَ المرجـــلِ
واهزجـــي لي هَـــزَجَ الحـــادي الرفيـــقْ
اصـــدحي يُـــصِغ لنـــا قلـــب الـــزمنْ
ردّدي الأنغـــامَ مـــن وحـــي الـــشجَنْ
رجّعـــي مـــا شـــئت مـــن أغنيـــةٍ
تـــصف الأشـــجانَ في نفـــس الـــشَّجِنْ

حـــدِّثي أختــاه عـــن ذاك الأمـــلْ
حـــين كـــان الكـــون في طـــيِّ الأزلْ
كــــان في عميـــــاءَ لا نعرفهـــــا
نحـــن فيهـــا كالمعـــاني في الجُمـــلْ
حـــــين كـــــان الله في عليائـــــهِ
يـــسمع التقـــديسَ مـــن أنـــوارهِ
وحـــــدةُ الكــــون جمـــــال الأولِ
مظهـــــر التنزيـــــه في إظهــــاره
حــــين، لا حـــين ولكـــن صـــانعٌ
جـــلَّ ذاتًـــا عـــن خفيـــات الفِكـــرْ
إنــــما الحـــين سرابٌ خـــــادعٌ
خُلَّـــبُ الـــبرق لـــه أجـــلى أثـــرْ
قالـــتِ: اســـمعْ يـــا نـــديمَ الـــسهرِ
همـــسةَ الأصـــداء مـــن رجـــع الحنـــينْ
آهِ! لـــــو أســـــطيع أن يُـــؤْذَنَ لي
لـــسمعتَ اللحـــن فيـــاضَ الأنـــينْ
نفثـــةُ الـــشعر عـــلى قيثـــارتي
وحـــديثي صـــادق الـــوحي يقـــينْ
إنــــما الأمــــر عَـــماءٌ غــــامضٌ
لا تُجلِّيــــه عميقـــــاتُ الظنـــــونْ
لا، ولا هــــذي العقـــول النـــائرهْ

في فيـــافي الفكـــر تهـــذي هـــاذرهْ
هـــذه الـــذرات تمـــشي حـــائرهْ
ســـابحاتٍ في فـــضاءٍ عـــاثرهْ
عابـــساتٍ في وجـــومٍ ثـــائره
أيـــن؟ لا أيـــنَ، ولكـــن ســـائره
مـــن ســـماء الله جـــاءت حـــادره
عـــن معمَّـــى الكـــون تجلـــو ســـافره
تـــسمع الآلامَ منهـــا والأســـى
تقـــرأ الآمـــال عنهـــا والمنـــى
وهـــي كـــالأحلام في قلـــب الـــدجى
وهـــي مـــزجٌ مـــن قنـــوطٍ ورجـــا
مُطْفِـــلٌ فـــارقَ عينيهـــا الْكَـــرَى
زادهـــا الوجـــدُ التياعًـــا وجـــوى
ورثـــت أطفالَهـــا كهـــفَ النـــوى
حـــين ضـــلَّت عنـــه لا تـــدري المـــدَى
رنّـــةٌ في هزمهـــا تحكـــي الأثـــيرْ
أصـــل هـــذا الكـــون مـــن نفـــح العبـــيرْ
سرُّ هـــــــــــذا أنهـــــــــــا
بلحـــونٍ مثـــل أنّـــات الأســـيرْ
زهـــرةٌ لاحـــت لنـــا في الـــسَّحرِ
مـــن بـــديع الزهـــر كانـــت أمـــلا

قالـــتِ: اســمعْ، لا تكـــن تحـــت الـــسَّما
بـــــل سُـــــموًّا فـــوق أطبـــاق العُــــلا

ـ ٢٧ ـ

آثاره:

القرآنيات :

- ـ «القرآن الكريم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين».
- ـ «نحو منهج لتفسير القرآن».
- ـ «رد مزاعم رسالة في قراءات القرآن».
- ـ «سنن الله في المجتمع من خلال القرآن».
- ـ «من رياض القرآن».
- ـ «الأمة الإسلامية كما يريدها القرآن».
- ـ «موقف الإسلام من المخترعات الحديثة».

التفسير :

- ـ «تفسير سور: التوبة والروم ولقمان والسجدة».
- ـ «شرائط تسجيل تليفزيونية».
- نفحات الإنعام في تفسير سورة الأنعام». مخطوط .

المحمديات :

- سيرة الرسول ﷺ .

- ـ «محمد من نبعته إلى بعثته».
- ـ «عظمة محمد في رسالته».

التراجم :

- ـ «قادة الفكر في تاريخ الإسلام».
- ـ «عثمان بن عفان».
- ـ «خالد بن الوليد».
- ـ «حجة الإسلام الغزالي: المفكر الثائر».

الفلسفة والاجتماع والتصوف :

- ـ «الموسوعة في سماحة الإسلام».
- «الدين منبع الإصلاح الاجتماعي».
- ـ «التصوف في الإسلام: منابعه وأطواره».

الأدب :

- ـ «الأدب بين القديم والحديث».
- ـ «بيني وبين الأستاذ محمد فريد وجدي : الحياة الأدبية عند العرب قبل الإسلام».
- ـ «النقد الأدبي عند العرب».مخطوط .

ـ ٢٨ ـ

حصل الشيخ محمد الصادق عرجون على جوائز أدبية في شبابه ، كما حصل على جائزة رابطة العالم الإسلامي عن كتابه «محمد رسول الله.. منهج ورسالة» .

ونوقشت عن أعماله رسائل علمية :

- نال سعد الغرباوي رسالة بكلية أصول الدين جامعة الأزهر تحت عنوان محمد الصادق عرجون وجهوده في الدعوة إلى الله .
- ونال غانم سعيد محمد غانم رسالة بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر تحت عنوان محمد الصادق عرجون أديبا.

*****

الباب الثامن

فكرة الهداية
محمد متولي الشعراوي
١٩١١م

ـ ١ ـ

ولد الشيخ محمد متولي الشعراوي في ١٦ من أبريل (١٩١١م) بقرية دقادوس مركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية، وحفظ القرآن الكريم في كتاب قريته، وانتقل إلى الزقازيق ليتلقى التعليم الأزهري في معهدها الديني، وعرف وهو طالب بعدد من مقومات الزعامة الواعدة فقد عرف بقدراته الشعرية، واهتماماته السياسية، وممارسته للحياة العامة، وشغفه بالصحافة.

ومن المهم أن نضبط المعلومات التاريخية حول فترة الشاب الثائر في حياة الشيخ لأنها تبدو مضطربة في كل ما كتب عنه وذلك بسبب الافتقاد إلى نظمها في موضعها الصحيح من مسبحة (أو سلسلة) تاريخنا الوطني .

لم يكن معهد الزقازيق بعيدًا عن قلعة الأزهر في القاهرة ، ولا عن مجريات السياسة وروح الثورة ، وثورة ذلك الوقت هي ثورة ١٩٣٥ التي يتجاهل تاريخنا الرسمي تفصيلاتها وذكرها لأنها كانت ثورة طلاب ناجحة هادرة تستهدف الديموقراطية وكرامة الإنسان ، وقد ارتبطت أهدافها وتقاطعت معا على الرغم مما يبدو من تنوع هذه الأهداف وتباعدها : من ثورة على البريطانيين ، وثورة من أجل عودة دستور١٩٢٣ والخلاص نهائيا من روح دستور ١٩٣٥ ومعقباته والأوضاع التي أنشأها ، والدعوة إلى اتحاد الأحزاب من أجل الديموقراطية ، وبالإضافة إلى هذا كله عودة محبوب الثوار الشيخ المراغي شيخا للأزهر وإقالة الشيخ الظواهري .

ـ ٢ ـ

وكان الشعراوي أحد زعماء هذه الثورة مع الشيخ محمد نايل والشيخ أحمد حسن الباقوري ، وكان الشعراوي قد أصبح أيضا رئيسًا لاتحاد الطلبة سنة

١٩٣٤م. فكان يقود الثورة في الزقازيق كما كان يتوجه للقاهرة من الزقازيق قائدا لزملائه إلى ساحات الأزهر وأروقته، ويلقى بالخطب والأشعار مما عرضه للاعتقال أكثر من مرة، كما كان يشترك في حركة المنشورات التي تعبر عن سخط المصريين ضد الإنجليز المحتلين و الوزارة المتواطئة .

ومن الحق أن نقول أن ثورة ١٩٣٥ خرجت من الأزهر الشريف كما اندلعت ثورة سنة ١٩١٩ من الأزهر من قبل .

ثم انتقل الشيخ الشعراوي للإقامة في القاهرة حيث التحق بكلية اللغة العربية بالأزهر في ١٩٣٧ ، وحصل على الشهادة العالية منها (١٩٤١)، وبعدها نال الشهادة العالمية مع الإجازة في التدريس (١٩٤٣) وطيلة هذه السنوات الست عاش الشعراوي القاهرة المائجة بالثورة والحراك والحياة والتقدم .

ـ ٣ ـ

عين الشيخ الشعراوي عقب تخرجه مدرسا بمعهد طنطا الأزهري، ثم معهد الإسكندرية، ثم معهد الزقازيق، وأعير للعمل بالسعودية (١٩٥٠) مدرسا بجامعة الملك عبد العزيز، وعاد لمصر فعمل وكيلا لمعهد طنطا الديني (١٩٦٠)، ونقل من الأزهر إلى وزارة الأوقاف حيث اختير مديرا للدعوة الإسلامية بوزارة الأوقاف (١٩٦١) .

ثم عاد الشيخ الشعراوي من الأوقاف إلى الأزهر مفتشا للعلوم العربية بالأزهر (١٩٦٢)، واختاره الشيخ حسن مأمون شيخ الأزهر في الستينيات مديرًا لمكتبه. واختير رئيسا لبعثة الأزهر بالجزائر (١٩٦٦) .

ثم عاد للسعودية فعمل أستاذا زائرا بجامعة الملك عبد العزيز بالسعودية (١٩٧٠)، فرئيسا لقسم الدراسات بها (١٩٧٢) .

وفي السعودية اضطر الشيخ الشعراوي أن يدرِّس مادة العقائد رغم تخصصه أصلًا في اللغة وآدابها وكان هذا في حد ذاته يمثل صعوبة كبيرة إلا أن الشيخ الشعراوي استطاع أن يثبت تفوقه في تدريس هذه المادة الشائكة في مثل هذا الوقت، وقد نجح لدرجة كبيرة لاقت تقدير الجميع .

-٤-

ثم عاد الشيخ الشعراوي إلى مصر، ونال درجة وظيفية رفيعة في وزارة شؤون الأزهر بحكم أقدميته في الدرجات الوظيفية العلمية، لكنه لم يتول موقعًا وظيفيًا مؤثراً، وإن كان قد تولى الوزارة نفسها فيما بعد.

وهذا ملخص تعاقبي للوظائف التي تولاها الشيخ الشعراوي في الفترة التي تختلف الروايات فيها وفي ترتيبها:

- عين وكيلًا لمعهد طنطا الأزهري سنة ١٩٦٠م.
- عين مديرًا للدعوة الإسلامية بوزارة الأوقاف سنة ١٩٦١م.
- عين مفتشًا للعلوم العربية بالأزهر الشريف ١٩٦٢م.
- عين مديرًا لمكتب الإمام الأكبر شيخ الأزهر حسن مأمون ١٩٦٤م.
- عين رئيسًا لبعثة الأزهر فى الجزائر ١٩٦٦م.
- عين أستاذًا زائرًا بجامعة الملك عبد العزيز / كلية الشريعة بمكة المكرمة ١٩٧٠م.
- عين رئيسا لقسم الدراسات العليا بجامعة الملك عبد العزيز ١٩٧٢م.

-٥-

عرف الشيخ الشعراوي فجأة وبقوة و على نطاق واسع بعد تكرر ظهوره الساطع في برنامج «نور على نور» الذي كان الأستاذ احمد فراج يقدمه بصفة

أسبوعية في التليفزيون المصري، وأصبح الشيخ في سرعة بالغة أبرز نجوم الدعوة الإسلامية.

يرى الدكتور محمد رجب البيومي وهو صاحب الفضل الأكبر علينا في توثيق التاريخ العلمي للشيخ الشعراوي أنه كان ظاهرة علمية فريدة، حيث تألق فجأة بعد الخمسين فجذب الأنظار إليه على نحو غير معهود، وتناقل حديثه الخاصة والعامة معا، إذ استطاع أن يرضي الجانبين بما رزق من وضوح الأسلوب، وقوة الحجة.

وقد تهافتت الإذاعات المرئية والمسموعة في شتى بقاع العالم العربي على تسجيل دروسه الأسبوعية، كما تطلعت دور النشر إلى طبع مؤلفاته على أوسع نطاق.

كذلك فقد كان اسمه وحده كافيا لإنجاح الرحلات التي قام بها داخل العالم العربي وخارجه، مما لم يقدر لغيره على هذا النحو المنفرد، وذلك لأن الرجل جمع من مواهب الإقناع إلقاء وتعبيرا وتفهما لنفسيات المستمعين ما جعله فوق الأنظار.

- ٦ -

اختير الشيخ الشعراوي وزيرًا للأوقاف عند تشكيل وزارة ممدوح سالم الثالثة (أكتوبر ١٩٧٦م)، واحتفظ بمنصبه في وزارات ممدوح سالم الثلاث الأخيرة طيلة عامين (أكتوبر ١٩٧٦م - أكتوبر ١٩٧٨م).

أتيح للشيخ الشعراوي أن يكون أول من أصدر قرارًا وزاريًا بإنشاء أول بنك إسلامي في مصر وهو بنك فيصل ومع أن الترخيص للبنوك من اختصاص وزير الاقتصاد فإن الوزير د. حامد السايح فوضه في هذا القرار، ووافق مجلس الشعب على القرار.

على أن أهم إنجازاته الإدارية في الوزارة كان إنهاؤه لسطوة محمد توفيق عويضة في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية وهي قصة ممتدة الفصول أتعبت وزراء

الأوقاف المتعاقبين لم ينجح فيها إلا الشيخ الشعراوي بفضل تجرده .

وقد آثر الشيخ الشعراوي بعد خروجه من الوزارة أن يمارس نشاطه في الدعوة وتفسير القرآن والإفتاء بعيدًا عن المناصب الرسمية والشرفية، على الرغم من ترشيحه لكثير منها. وقد عين عضوًا بمجمع البحوث الإسلامية ١٩٨٠م. كما اختير عضوًا مؤسسا في مجلس الشورى ١٩٨٠م.

وقد توجت حياته العلمية بانتخابه عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة (١٩٨٧م)، وقد وقف من ماله جائزة يمنحها المجمع بصفة سنوية .

— ٧ —

لم تكن للشيخ الشعراوي حتى السبعينيات مؤلفات إسلامية في مجال بعينه، ولم يكن قد ركز على موضوع ما في أحاديثه، لكنه كان بحكم العلم الغزير والقدرة البيانية قادرًا على أن يأخذ بألباب سامعيه في كل ما يعرض له من قضايا الإسلام والعصر.

وقد ظهرت قدرات الشيخ الشعراوي المتميزة في تناول القضايا القديمة والحديثة على حد سواء، كما تميز منهجه في التناول بذكاء بالغ، وكان من المتفق عليه أنه رزق التوفيق في الاختيار والمعالجة والتعقيب والجدل جميعا.

وسرعان ما ركز الشعراوي جهده في تفسير القرآن، وبهذا كان يبدأ حديثه من النص القرآني ويدور حوله، وسرعان ما أصبحت دروسه في التفسير وسيلته المفضلة لنشر أفكاره الدينية، والاجتماعية، والخلقية.

— ٨ —

صادفت أحاديث الشيخ الشعراوي ودروسه قبولا وذيوعا لم يتحقق لأحد غيره، ولم يصل إليه سلف أو خلف، وقد علل المعاصرون هذا النجاح بأسباب

كثيرة ومتعددة، منها قدرته الفائقة على الشرح والتبسيط، ومنها بساطته، ومنها تلقائيته، ومنها حرصه على الأخذ بألباب مستمعيه.

وفضلًا عن هذا فقد كانت هناك عوامل أخرى واكبت هذه المواهب والقدرات لا يتحدث عنها المحللون لنجاحه ، وهي مناخ الحرية، وروح الانتصار، والثقة في النفس بعد حرب أكتوبر، فضلًا عن موجة الازدهار التي شهدتها وسائل الإعلام والاتصال الجماهيري، وارتفاع مصداقية الوسائط الإعلامية وقدرتها على التأثير في الجماهير .

ومن زاوية ثالثة فقد تميز منهجه المحبب في إلقائها، إذ كان حريصًا على أن يقدم أفكاره متناسقة و متسلسلة، ويجعلها شبيهة بالقضايا المنطقية ذات النتائج الملزمة دون غموض، فإذا اتضحت القضية أيدها بالنص القرآني المحكم، فيكون بعد الاقتناع السابق دليلا ملزما لا يقبل النقض.

وقد وصف الشيخ الشعراوي باستطراده في بعض الأحيان، لكن استطراده كان تشويقا يجذب الكثرة التي ترحب بالطرائف ، وحين جمع تفسيره في مجلدات متتالية فإنه حذف الاستطرادات، ومضى التفسير على سننه المعهود.

وقد أصبح الشيخ الشعراوي بهذه الدروس وانتظامها و ذيوعها وجماهيرها بمثابة جامعة علمية شعبية وبمثابة جامعة مفتوحة أيضا تنتقل إلى المشاهدين في نواديهم وبيوتهم بالدروس ، وهم يجلسون حولها متابعين وكأنهم يجلسون في معهد علمي.

ـ ٩ ـ

تمتع الشيخ الشعراوي بقدرة فائقة على اجتذاب أكبر عدد من مختلف الطوائف إلى محيطه الهادي والهادئ، وكان شأن أصحاب الدعوات الصالحة يزداد أتباعًا مع

الأيام، وقد نجح في أن يرتقي بهؤلاء جميعًا في مدارج الإيمان بالله والاهتداء إلى السلوك المستقيم، والنفس المطمئنة، والشخصية الآمنة.

وقد وجد الشيخ الشعراوي نفسه بمثابة القدوة لمجموعات كبيرة جدًا من الناس في طريق أراده الله له فلم يصبه للحظة واحدة غرور الزعيم، وإنما تصور نفسه كما كانت بالفعل نفسًا مسؤولة عن أنفس، وضميرًا مسؤولا عن ضمائر، وأدرك منذ بداية صعود نجمه أنه رجل مسؤول في كل ما يصدر عنه من قول أو فعل أو إقرار ، وعرف أن أتباعه يريدون منه القدوة وأن أعداءه قد يتربصون به في أي فرصة للخطأ، وعلم أن عليه ألا يكف عن الاستزادة من علوم الدين والدنيا وأن يرتقي بثقافته إلى حيث وصلت ثقافة العصر، وأدرك من دون خوف ولا وجل مدى سطوة آلة الأعلام الرهيبة في عصر التليفزيون ثم الفضائيات والأقمار الصناعية ...

— ١٠ —

اهتدى الشيخ الشعراوي إلى أن يكون كما هو على حد تعبير المثل الإنجليزي وهكذا قدم نفسه للناس على الصورة التي هو عليها فكانت ثيابه أو جلده الثاني شيئًا قريبًا جدًا من جلده الأول، وكانت لهجته أقرب إلى لهجته في الطفولة منها إلى لهجته في الكهولة والشباب، وكانت معلوماته أقرب إلى الشباب من معلومات الأستاذ القديم، وكان أداؤه أقرب إلى إمام ميت غمر منه إلى أداء إمام أي مسجد قاهري، وكانت تعبيراته وتشبيهاته ومجازاته وصوره واستعاراته وتجريداته أبسط من أن يكتنفها أي تكلف أو تعقيد أو تركيب ...

وظلت صلته بمريديه ومردديه ومستمعيه ومنتقديه أبسط ما يكون، وكانت مباشرة جدًا وحميمية جدا، وفي بعض الأحيان كانت صلته بأتباعه تبدو للمتفلسفين واهية كخيوط العنكبوت، وبخاصة أنه لم يكن شيخ طريقة، ولا صاحب مذهب،

ولكنها كانت فيما بدا ومازال يبدو أقوى وأصلب من أي صلة أخرى، لأنها كانت صلة قلبية راسخة من حيث الطبيعة وإن لم تكن كذلك من حيث بناء العلاقة.

ـ ١١ ـ

نجح الشيخ الشعراوي في أن يحمي نفسه من الشعور المرضي بالتفوق ولم يكف عن تذكير نفسه والناس ببساطة أصوله بل وببساطة علمه، وكان أقرب الناس الذين كتبوا سيرتهم إلى الغربيين في انتهاج منهج الصدق المطلق والحديث عن كل نوازع النفس، فقد حرص على أن يسلط الأضواء على الجوانب الصعبة في حياته العقلية والدراسية.

وقد انتهج الشيخ الشعراوي في هذا أيضا سلوك الواثقين الراضين حين نأى بخطوات حياته أن تكون متأثرة بظلم وظيفي أو خوف من عهد الثورة وما ساده من سيطرة رأي واحد مع أنه كان في وسعه أن يفعل، ولكنه آثر أن يمضي بحياته بعيدًا عن مثل هذه المسالك قصيرة الأجل أو قاصرة الأمل .

وعلى الرغم من حرص الشيخ الشعراوي الدائم على ذكر ابتعاده عن قراءة ما عدا القرآن، فقد كان تفسيره وحديثه منبئًا عن اطلاع متكرر على الجديد في علوم النفس والتربية والاجتماع والنظريات الاقتصادية العامة، والعلوم الحديثة.

ومن الإنصاف أن نشير هنا إلى قصة بسيطة تنم عن شغفه البالغ بالثقافة واستزادته المبكرة منها .

عندما أراد والده إلحاقه بالأزهر الشريف كان الشيخ يؤثر زراعة الأرض والبقاء فيها على العلم ، ولكن إصرار الوالد دفعه لاصطحابه إلى الزقازيق ودفع المصروفات وتجهيز المكان للسكن فما كان منه إلا أن اشترط على والده أن يشتري له أمهات الكتب في التراث واللغة وعلوم القرآن والتفاسير وكتب الحديث النبوي

الشريف، وكان يفعل هذا من من باب التعجيز حتى يرضى والده بعودته إلى القرية. لكن والده فطن إلى تلك الحيلة، واشترى له كل ما طلب قائلًا له: أنا أعلم يا بني أن جميع هذه الكتب ليست مقررة عليك، ولكني آثرت شراءها لتزويدك بها كي تنهل من العلم .

١٢

كان الشيخ الشعراوي يستعمل المنطق والفلسفة والقياس فيما استعمله الأقدمون وربما أكثر، وكان يمضي في استنتاجاتها إلى نهايتها ما دام مطمئنا إلى وسائله ومقدماته ، ولكنه كان يؤمن كذلك برحابة الفكر حتى وإن لم يدرك هذه الرحابة بما مكنه الله من وسائل عقلية، ولهذا فإن الاهتداء القلبي كان هو أهم ما يقود خطواته في التسامح الفكري وتقبل الآخر .

كان الشيخ الشعراوي إنسانا نقيا بلغ أقصى حدود الإنسانية ، والرقي ، ولو أنه كان مغرضًا ولو بنسبة واحد في المليون لأشعل في العقدين الأخيرين حروبا لاتقل ضراوة عن الحروب الصليبية، ولعقد محاكم لاتقل قسوة عن محاكم التفتيش، ولكنه لحسن الحظ لم يفعل هذا ولم ينسق إليه، وكان امتناعه عن كثير من السلوك الأرعن أعظم من كل إنجازاته الفكرية والفقهية والبيانية بل ومن كل إنجازات أقرانه على مدى القرن العشرين، وكان الشعراوي موفقًا جدًا في التوقف عند لحظة حاسمة في كل الخلافات التي اشتعلت بينه وبين أعلام الفكر والأدب والسياسة والصحافة .

١٣

قدم الشيخ الشعراوي من خلال دروسه الدينية رأى الإسلام في كثير من قضايا العصر التي طال الجدل فيها، ومنها قضايا المرأة والمذاهب الفكرية والاقتصادية والفلسفية والشيوعية والرأسمالية والوجودية، وقد تميز بالقدرة الفائقة على اختيار

نقاط مقارباته مع هذه القضايا، متخذا من نصوص القرآن مدخلًا لما يرى أن يقدمه من النقد لِمَنْ يحاولون تجاهل النص القرآني.

وقد مضى في عرض أفكاره على طريقة المخلصين لأفكارهم، المؤمنين بها، القادرين على الإقناع دون أن يلجأ إلى توفيق آرائه لتتسق مع السياسة أو الفكرة السائدة أو أصحاب الأصوات العالية، وهيأ له موقفه الصلب الانتصار حينًا بعد آخر.

ـ ١٤ ـ

وعلى سبيل المثال فإنه في كتابه «ردا على الملاحدة والعلمانيين» يشير إلى أن العلمانية ازدهرت في أوروبا لأن الكنيسة تحكمت في الناس، أما الإسلام فليس في حاجة إليها، إذ ليس لدينا تسلط كنسي، وليس لدينا حجر على الفكر، وإذا كانت الكنيسة بسيطرتها قد عاقت التقدم الفكري، فالإسلام بسماحته وعدالته قد حمى الحرية، وترك للعلم أن يغزو الكون، وأعلام الأمة في العصور الزاهرة هم الذين رفعوا الحضارة الإنسانية في بغداد والقاهرة وقرطبة حين كانت أوروبا غارقة في الظلمات.

وكان موقف الشعراوي من قضية المرأة واضحًا ، مؤكدا أن هذا الدين صان كرامتها، ولم يجعلها خليلة تمتهن، بل زوجة ذات حق، ولها شخصيتها المالية التي لاتزال تنكرها أكثر القوانين الغربية حتى الآن!

ـ ١٥ ـ

تميز تفسير الشيخ الشعراوي للقرآن وحديثه المتشعب حول هذا التفسير بالقدرة الفائقة على الاستنباط، وعمق التحليل، وكان حريصًا على أن يكرر القول بأن ما يلقيه من الدروس ليس تفسيرا للقرآن، ولكنه خواطر إيمانية تفد على قلب المؤمن فيفصح بما جاش في خاطره.

وربما كان من المهم أن نذكر أن الشعراوي انتهى بتفسيره عند أواخر سورة الممتحنة وأوائل سورة الصف وحالت وفاته دون أن يفسر القرآن الكريم كاملاً. ويذكر أن له تسجيلًا صوتيًا يحتوي على تفسير جزء عم (الجزء الثلاثون). وهكذا فإنه ينقص تفسيره جزء ونصف : النصف الثاني من الجزء ٢٨ والجزء ٢٩.

وقد لاحظ المتابعون أن الشيخ الشعراوي في الأجزاء الأخيرة من تفسيره آثر الاختصار بسبب مرضه و حتى يتمكن من إكمال خواطره ، ثم عاد واعتذر على الشاشة عن اختصاره واستغفر الله عن إيجازه في هذه المعاني حرصا منه على أن يتمم بحول الله تفسير كتاب الله في حياته ، وأنه عوتب فى ذلك وقيل له : الموت له أجل ، ورزقك من الله له أجل.

ـ ١٦ ـ

أجاب الشيخ محمد متولي الشعراوي عن الأسئلة التي كانت توجه له موضحًا منهجه في التفسير فقال :

خواطري حول القرآن الكريم لا تعني تفسيرًا للقرآن. وإنما هي هبات صفائية. تخطر على قلب مؤمن في آية أو بضع آيات.. ولو أن القرآن من الممكن أن يفسر. لكان رسول ﷺ أولى الناس بتفسيره. لأنه عليه نزل وبه انفعل وله بلغ وبه علم وعمل. وله ظهرت معجزاته. ولكن رسول الله ﷺ اكتفى بأن يبين للناس على قدر حاجتهم من العبادة التي تبين لهم أحكام التكليف في القرآن الكريم، وهي «افعل ولا تفعل..» .

اعتمد في تفسيره على عدة ركائز منها:

- اللغة العربية وأدبها كمنطلق لفهم النص القرآني .
- فهم فصاحة القرآن وسر نظمه .

- تجاربه الشخصية وما مر به من واقع الحياة .
- ضرب المثل وحسن تصويره.
- المزاوجة بين العمق والبساطة وذلك من خلال اللهجة المصرية الدارجة والاستطراد الموضوعي.

ـ ١٧ ـ

لم يشغل الشيخ الشعراوي نفسه بالتمحور حول قضايا محددة كقضية إعجاز القرآن، أو الإعجاز العلمي للقرآن، لكنه كان يتناول هذه القضايا أيضا و من حين لآخر برؤية متكاملة وكأنه عرض لها عرضاً، وعلى سبيل المثال فقد كانت وجهة نظره أن الإعجاز القرآني لا يكون في السورة أو الآية أو الكلمة فحسب، بل في كل حرف، واستشهد لذلك بما يؤيد وجهة نظره ، كما قرر أنه سيستجد ويتأتي من وجوه الإعجاز في الغد ما لا نعرفه اليوم، وكان الشيخ باتساع معارفه يضرب على صواب هذا الرأي أمثلة قوية.

وربما كانت ثقافة الشيخ الشعراوي الأزهرية القديمة ودراسته في كلية اللغة العربية خير عون له على هذه القدرة الظاهرة التي كان يتمتع بها في مخاطبة الجمهور في كافة الشئون معتمدًا على التحليل اللفظي للنصوص القرآنية التي يتولى مخاطبة الجمهور من خلالها، وبنجاحه في اتخاذها محورا للمواعظ أو القيم التي يريد الحديث عنها.

ـ ١٨ ـ

لم يكن الشيخ الشعراوي حريصًا على التفصيل الدقيق في حديثه عن الأحكام الفقهية وأصول الفقه على نحو كان مهيئا لمعاصريه من خريجي كليات الشريعة، والعاملين في الفتوي والقضاء الشرعي، ومع هذا فقد كان ذا قدرة عالية على ممارسة دور الفقيه والأصولي المجيد لفهم العموميات وتطبيقها بروح نافذة قادرة على

الوصول إلى الصواب بعيدًا عن خاصة العلم الغزير بمواطن الخلاف الفقهي.

وقد واتته هذه القدرة وظهرت بوضوح عندما انهالت عليه الأسئلة عن رأي الدين في كثير جدًا من القضايا، بل ربما في كل القضايا المعاصرة، وكانت له إجابات قاطعة نجت بذكاء من الغرق في النقول الفقهية والتعريفات الاصطلاحية، واتجهت إلى العقل المباشر ،تشرح له القضية، فإذا اتضح مدلولها استدعى مايعرف من السند القرآني، أو الأثر النبوي مؤيدا للفتوي بها بوجب الاقتناع .

ـ ١٩ ـ

ومن خلال تفسيره للقرآن وأحاديثه نجح الشعراوي بالفعل في كسب أنصار جدد للغة العربية باتوا يقدرون حقيقة الثروة التعبيرية الهائلة الكامنة في ألفاظ هذه اللغة، والتي كان يبين عنها بكل وضوح وقوة عندما يتعرض لتفسير آيات القرآن الكريم.

كذلك نجح الشيخ الشعراوي بتفسيره في محاورأخرى عديدة منها :

- الإصلاح الاجتماعي وروحه .
- رد شبهات المستشرقين .
- رسم صور [illegible]اعية ومضيئة للصوفية .
- بيان حدود الأسلوب المنطقي الجدلي .

ومن الإنصاف أن نشير إلى أن الشعراوي كان يلجأ إلى العامية الراقية حين يحتاج إليها، وكان يفعل ذلك بسلاسة و في براءة الأطفال وبراءة الدعاة، ولهذا فقد قدره مجمع اللغة الفصحى نفسه وانتخبه عضوًا في مجمع الخالدين .

ـ ٢٠ ـ

ونأتي إلى الحديث السريع جدا عن شاعرية الشيخ الشعراوي ، وإني لأذكر بكل

فخر أن ديوان الشيخ الشعراوي بعد جمعه كان من أول الأعمال التي توليت نشرها حين كنت مسؤولا عن النشر في الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ونحن نعرف بالطبع أن الشعراوي كان من طلاب العلم الذين شغفوا بالأدب، بل لقد كان الشيخ الشعراوي نفسه يقول عن نفسه : «عرفوني شاعراً» .

وقد ترك الشيخ آثارا جميلة في ميادين الوطنية والثورة أولا، والحكم والوعظ ثانيا ، والمناسبات والإخوانيات ثالثا ، والوجدان رابعا ، والوصف والطبيعة خامسا.

ومما تحدث عنه الشيخ الشعراوي في مذكراته التي نشرتها " الأهرام اشتراكه في تسابق أعضاء جمعية الأدباء في تحويل معاني الآيات القرآنية إلى قصائد شعر. وهو يذكر أن رفقاءه أعجبوا أشد الإعجاب بهذا النوع من شعرالحكم إلى درجة أنهم تولوا طباعتها على نفقتهم وتوزيعها.

ومن أبيات الشعر التي كان يعتز بها، ما قاله في معنى الرزق:

تحرى إلى الرزق أسبابه

فإنك تجهل عنوانه

ورزقك يعرف عنوانك

وكما قلنا فقد كان لشعر الوصف والصوفية عنده مكانة كبيرة ، وهو يقول في قصيدة بعنوان «موكب النور» :

أريحي السماح والإيثار ... لك إرث يا طيبة الأنوار

وجلال الجمال فيك عريق ... لا حرمنا ما فيه من أسرار

تجتلي عندك البصائر معنى ... فوق طوق العيون والأبصار

ـ ٢١ ـ

ونأتي إلى السياسة فيسعدنا أن نجد الشيخ الشعراوي وقد ظل طيلة حياته واضح الانتماء في أفكاره السياسية، ومع أنه لم يكن ميالا إلى الحزبية بمعناها الدينامي فإنه حين اختار طريقه السياسي كان دائمًا في الصف الذي فيه أغلبية الشعب، وكان حريصًا على أن يكون مع الجماعة الوطنية التي مثلها الوفد في عهدى سعد زغلول والنحاس.

وعلى الرغم من أن معظم متاعبه جاءته من هذا الاختيار فإنه لم يتراجع عن اختياراته السياسة المبكرة، وقد أكسبه هذا صفاء نفسيا وعقليا ، حتى من دون أن يكون واعيا لهذا المعني الطبي النفسي ، و قد ظل على الدوام فخورا بوفديته المبكرة وبعلاقته بالنحاس باشا ومدحه له، وفي كل حواراته السياسية وغير السياسية فإن الشعراوي لم يدلس أبدًا ولم يزعم على الإطلاق أنه قاد ولا انضوى تحت أي حزب غير الوفد ! وقد سببت له صراحته في هذه النقطة كثيرًا من المتاعب الخفية.

ـ ٢٢ ـ

وقد كانت للشيخ ذكريات وطنية وثورية كثيرة وبخاصة أنه كان من المشاركين المتحمسين للعمل الوطني والثوري لكن هذه الذكريات لا تزال في حاجة إلى تحقيق وضبط حتى في أسماء أبطال الأحداث الواردة فيها، ولنقرأ على سبيل المثال هذا النص الذي يدل بنفسه على صحة الواقعة ومع هذا تختلط الأسماء الواردة فيه :

«وأتذكر حكاية كوبري عباس الذي فتح على الطلاب من عنصري الأمة ، وألقوا بأنفسهم في مياه النيل شاهد الوطنية الخالد لأبناء مصر . فقد حدث أن أرادت الجامعة إقامة حفل تأبين لشهداء الحادث ولكن الحكومة رفضت. فاتفق إبراهيم نور الدين رئيس لجنة الوفد بالزقازيق مع محمود ثابت (؟!) رئيس الجامعة المصرية على أن تقام حفلة التأبين في أية مدينة بالأقاليم . ولا يهم أن تقام بالقاهرة.

ولكن لأن الحكومة كان واضحًا إصرارها على الرفض لأي حفل تأبين فكان لابد من التحايل على الموقف» .

«وكان بطل هذا التحايل عضو لجنة الوفد بالزقازيق حمدي المرغاوي (!!) الذي ادعى وفاة جدته ، وأخذت النساء تبكي وتصرخ. وفي المساء أقام سرادقا للعزاء وتجمع فيه المئات وظنت الحكومة لأول وهلة أنه حقًا عزاء. ولكن بعد توافد الأعداد الكبيرة بعد ذلك فطنت لحقيقة الأمر. بعد أن أفلت زمام الموقف وكان أي تصد للجماهير يعني الاصطدام بها. فتركت الحكومة اللعبة تمر على ضيق منها. ولكنها تدخلت في عدد الكلمات التي تلقى لكيلا تزيد للشخص الواحد على خمس دقائق» .

ـ ٢٣ ـ

وهو يواصل رواية ذكرياته مضفرا الشعر بالوطنية فيقول :

«وفي كلمتي بصفتي رئيس اتحاد الطلبة قلت:

شباب مات لتحيا أمته

وقبر لتنشر رايته

وقدم روحه للحتف قربانا لحريته » .

«ولأول مرة يصفق الجمهور في حفل تأبين. وتنازل لي أصحاب الكلمة من بعدي عن المدد المخصصة لهم لكي ألقى قصيدتي التي أعددتها لتأبين الشهداء البررة والتي قلت في مطلعها :

نداء يا بني وطني نداء ... دم الشهداء يذكره الشباب

وهل نسلو الضحايا والضحايا ... بهم قد عز في مصر المصاب

شباب برَّ لم يفْرِق.. وأدى رسالته، وها هي ذي تجاب

فلم يجبن ولم يبخل وأرغى وأزبد لا تزعزعه الحراب

وقدم روحه للحق مهراً ومن دمه المراق بدا الخضاب

وآثر أن يموت شهيد مصر لتحيا مصر مركزها مهاب

ـ ٢٤ ـ

تمتع الشيخ الشعراوي بروح عالية في التعامل مع مخالفيه ومعارضيه والناقمين عليه ، ومن الطريف أن بدايات أجوبة الشعراوي على أسئلة القراء بدأت وتواصلت على مدى سنوات في مجلة «حواء»، و مجلة الشباب وعلوم المستقبل التي تصدرها الأهرام ، وقد دار أكثر ما نشر في حواء بالطبع حول قضايا المرأة، وكان من الطريف أن يدلي بدلوه على صفحة مجلة يرى الملتزمون أنها جاهرت كثيرا بما يخالف قول الله، ولم تستطع المجلة أن توقف النشر، لأن السائلات والسائلين كانوا يطلبون رأي الشعراوي بالذات.

وقد جمع كثيرون حواراتهم مع الشيخ الشعراوي في كتب لاقت الذيوع :

- الشيخ الشعراوي وفتاوى العصر : محمود فوزي .
- الشيخ الشعراوي وقضايا إسلامية حائرة تبحث عن حلول : محمود فوزي.
- الشيخ الشعراوي ويسألونك عن الدنيا والآخرة : محمود فوزي.
- الشعراوي بين السياسة والدين : سناء السعيد.

ـ ٢٥ ـ

كذلك سجل كثيرون ذكرياته في حوارات معه كان منها ما نشره محمد زايد في جريدة الأهرام على [illegible]ات ثم في كتاب بعنوان «الراوي هو الشعراوي» صدر عن دار الشروق .

وهناك مجموعة من المؤلفات تنسب إلى محاوريه من قبيل :

- ماثه سؤال وجواب في الفقه الإسلامي مع الشيخ محمد متولي الشعراوي للأستاذ عبد القادر أحمد عطا.
- أضواء حول اسم الله الأعظم للأستاذ محمد السيد أبوسبع مع الشيخ محمد متولي الشعراوي.

ـ ٢٦ ـ

ذكرنا فيما تقدم أن الشيخ الشعراوي لم يبدأ التأليف ونشر مؤلفاته إلا بعد أن وصل إلى ما وصل إليه من شهرة عالمية ومع هذا فإن المكتبة العربية احتفظت لاسمه بمؤلفات كثيرة، وقد طبعت هذه المؤلفات عدة طبعات، وكونت للقراء مكتبة مستنيرة صادفت قبولًا وذيوعا ولا تزال تطبع إلى الآن.

ومن هذه المؤلفات:

- «تفسير الشعراوي» الذي صدرت طبعته الكاملة عن مؤسسة أخبار اليوم، ويعده الدكتور رجب البيومي أوفى مرجع لآراء الإمام، ومنزلته منه كمنزلة «المنار» من مؤلفات السيد محمد رشيد رضا.

وبالإضافة إلى التفسير فقد نشرت للشيخ الشعراوي كتب مستقلة بموضوعات تقليدية ، وقد اجتهدت في أن أقدم للقارئ هذه القائمة مجمعة ومرتبة ألفبائيا بحيث يمكن البناء عليها في المستقبل إن شاء الله .

- الإسراء والمعراج .
- الإسلام والفكر المعاصر .
- الإسلام والمرأة، عقيدة ومنهج .

- الإنسان الكامل محمد ﷺ .
- الأحاديث القدسية .
- الأدلة المادية على وجود الله .
- الآيات الكونية ودلالتها على وجود الله تعالى .
- البعث والميزان والجزاء .
- التوبة .
- الجنة وعد الصدق
- الجهاد في الإسلام .
- الحج الأكبر ـ حكم أسرار عبادات .
- الحج المبرور .
- الحسد.
- الحصن الحصين.
- الحياة والموت.
- الخير والشر.
- الحلال والحرام.
- الربا.
- الرحلات.
- السحر.
- السحر والحسد.
- السيرة النبوية.
- الشورى والتشريع في الإسلام.
- الشيطان والإنسان.

- الصلاة وأركان الإسلام.
- الطريق إلى الله.
- الظلم والظالمون.
- الغارة على الحجاب.
- الغيب .
- الفتاوى.
- الفضيلة والرذيلة.
- الفقه الإسلامي الميسر وأدلته الشرعية.
- القضاء والقدر.
- الله والنفس البشرية.
- المرأة في القران الكريم.
- المرأة كما أرادها الله.
- المعجزة الكبرى.
- المنتخب في تفسير القرآن الكريم.
- النصائح الذهبية للمرأة العصرية.
- الوصايا.
- إنكار الشفاعة.
- أحكام الصلاة.
- أسرار بسم الله الرحمن الرحيم.
- أسماء الله الحسنى.
- أسئلة حرجة وأجوبة صريحة.
- أنت تسأل والإسلام يجيب.

- بين الفضيلة والرذيلة.
- جامع البيان في العبادات والأحكام.
- حفاوة المسلمين بميلاد خير المرسلين.
- خواطر الشعراوي.
- خواطر قرآنية.
- ردا على الملاحدة.
- شبهات وأباطيل.
- عداوة الشيطان للإنسان.
- عذاب النار وأهوال يوم القيامة.
- على مائدة الفكر الإسلامي.
- فقه المرأة المسلمة.
- قصص الأنبياء.
- قصص الحيوان في القرآن.
- قضايا العصر.
- لبيك اللهم لبيك.
- محمد ﷺ.
- معجزة القرآن.
- من فيض القرآن.
- نظرات في القرآن.
- نهاية العالم.
- هذا ديننا.
- هذا هو الإسلام.

- وصايا الرسول.
- يوم القيامة.

ـ ٢٧ ـ

نال الشعراوي من التكريم ما يستحق الحصر . وقد حصل على الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعتي المنصورة والمنوفية ونال وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى عند بلوغه سن التقاعد في ١٥/ ٤/ ١٩٧٦ م قبل تعيينه وزيرًا للأوقاف وشؤون الأزهر كما منح وسام الجمهورية من الطبقة الأولى مرتين عام ١٩٨٣م وعام ١٩٨٨م، ومنح وسام الاحتفال بيوم الدعاة ، واختارته محافظة الدقهلية شخصية المهرجان الثقافي لعام ١٩٨٩م، واختارته رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة عضوًا بالهيئة التأسيسية لمؤتمر الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية، الذي تنظمه الرابطة، وعهدت إليه بترشيح من يراهم من المحكمين في مختلف التخصصات الشرعية والعلمية، لتقييم الأبحاث الواردة إلى المؤتمر.

ـ ٢٨ ـ

تزوج محمد متولي الشعراوي وهو في المرحلة الثانوية بناء على رغبة والده الذي اختار له زوجته، ووافق الشيخ على اختياره، وقد رزق ثلاثة أولاد وبنتين: سامي وعبد الرحيم وأحمد، فاطمة ،و صالحة.

توفي الشيخ الشعراوي في ١٧ من يونيو ١٩٩٨م بعد أن عوفي أكثر من مرة من أزمات الصدر التي ازدادت عليه في الآونة الأخيرة من حياته، وقد ودعه الجمهور بما فاق كل تصور في التشييع، ودفن بقرية دقادوس مسقط رأسه وخلد ذكر اسمه بمؤسسات كثيرة.

*****

المحتويات